دراسات قومية

دليل الشباب إلى البطولة

تأليف

السيد فرج

العدد ١٢

دراسات قومية
العدد الثانى عشر

دليل الشباب
إلى البطولة

تأليف
السيد فرج

١٩٨٠



الإهـداء

إلى ابنى

النقيب المهندس محمد سيف الدين

.. وقد تمثلت فيه شبابى

واستقرت فى وجدانى صور الشباب وروائعه وبطولاته

السيد فرج

تقديم

روى عن شاعر رومانى قديم أنه قال :

« ما أتعس الرجل المسّن . . فى الحرب ، وفى الحب » !

وقد عقّب «الفيلد مارشال ويفل» على هذه الرواية بقوله :

« أنه ليشقّ علينا أن نحدد تماما تلك السن التى تنتهى عندها قدرة القائد على قهر أعدائه ، وكذلك السن التى تنتهى عندها قدرة دون جوان على غزو قلوب العذارى . . ولكنه فى الأغلب والأعم :

لاينفع فى الحرب ، وفى الحب ، إلا الشباب !

وقد سبق شعراء العرب القائد الانجليزى الأديب إلى مثل هذا الرأى فى

الحب ، ومنهم علقمة بن عبده ، الذى اشتهر بأنه أخبر الناس بالنساء . . قال علقمة :

فإن تسألونى بالنساء فإننى خبيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شابَ رأس المرء أو قلّ ماله فليس له فى وُدّهِنّ نصيبُ
يُردْنَ ثَراءَ المالِ حيثَ عَلِمْنَهُ وَشَرْخُ الشَبابِ عندهُنّ عجيبُ

هذا عن الشباب فى الحب . .

أما فى الحرب ، فقد عرف عن الاغريق والرومان الأقدمين — على حد رواية سابق المؤرخين الثقاة وعميدهم : « بلوتارك » — أنهم كانوا يختارون لقيادة الجيش شابا مغوارا ، ثم يحيطونه بهيئة أركان حرب من المحاربين القدماء ، ذوى الخبرة بمسالك الجبال وخطط الحروب وحيلها .

هكذا كان الاسكندر المقدونى ، ابن الخامسة والعشرين ، عندما أحرز النصر المؤزر فى معركة « أرابيلا » إحدى فواصل التاريخ ، فقوضّ ملك فارس — أقوى إمبراطورية فى زمانه — وغزا مصر وبابل ، وفتح الهند . . وأصبح سيد الدنيا وهو فى ريعان الشباب .

وقد حفلت قائمة كبار القواد فى التاريخ بأسماء شباب خالد ، فى مقدمتهم « بلزاريوس » القائد اليونانى — الذى يعتبره « ويقل » أعظم قائد فى التاريخ — وفردريك الأكبر القائد البروسى — الذى اشتهر بلقب « أعظم جندى فى أوربا » وجاكسون ، وجوستاف أدولف ، وتورين — ماريشال فرنسا فى سن الثانية والثلاثين — وكوندية القائد العام فى سن الثانية والعشرين ، وشارل الثانى عشر ، والبرنس أوجين ، ونابليون بونابرت . . الذين كانوا جنرالات قبل سن الثلاثين ؟ !

وكان رأى نابليون أن يتقاعد القواد بعد سن الثامنة والثلاثين فلايتولون قيادة الجيوش. وانطبق هذا الرأى على نابليون نفسه ، وصح تقديره . . فإن روعة الشباب التى فتحت أمام نابليون قلاع أوربا لم تعد - بعد تلك السن - فى امكاناته . . ولذلك حاقت به الهزيمة الساحقة فى « ووتر لو » . . كان قد تخطى سن الثامنة والثلاثين !

وكان محمد « القائد ﷺ » حفيًا بالشباب ، وفى صحبته ووفق تربيته برز عدد كبير من قادة جيوش المسلمين الذين كانوا يفيضون شبابا وشجاعة وإيمانا وحكمة . . قادة تميزوا بالأخلاق والمبادىء والقيم . . كانت سيوفهم تقطر دما ، وقلوبهم تنبض بالإيمان والخير والرحمة .

وقد ازدان التاريخ الحربى العربى بأسماء قادة بواسل تمرّسوا بالحرب ووضعوا الخطط وعبروا المفازات وأحرزوا النصر على جيوش خصومهم من الدول السابقة فى الحضارة والمزهوة بالقوة . . هكذا كان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والزبير بن العوام وأضرابهم من القادة الشبان البارزين .

وكان اختيار أسامة بن زيد - وهو فى العشرين من عمره - قائدا عاما لجيوش المسلمين - وفيهم أبو بكر وعمر وكبار الصحابة - اختيارا أثار الدهشة والتعجب . . إنما ولاّه القائد الملهم ليجعل له من فخار النصر مايجزى به استشهاد أبيه المغوار « زيد بن حارثة » فى معركة « مؤته » وكذلك قصد إلى دفع الشباب إلى مراكز القيادة وعركهم مبكرا بمسئوليات الحروب .

لذلك كان آخر ماأمر به الرسول القائد ﷺ قبل وفاته :

« أيها الناس : أنفذوا بعث أسامة » .

فلما قضى الرسول ﷺ وتولى أبو بكر ، كان أول مافعله - فور أن تمت بيعته

بالخلافة – ايفاد بعث أسامة . .

قال أبو بكر :

« ليتم بعث أسامة . . ألا لايبيتن بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره »

ولقد كان أسامة خليقا بالقيادة كما كان أبوه خليقا بها ، فقد حمل اللواء واندفع إلى مهمته الكبرى بحماسة الشباب الوثاب ومعنويات القائد الذى اختاره رسول الله ﷺ ، فطوى البيداء وتخطى المفاوز غير عابىء بوطأة الحرّ ووعثاء الطريق حتّى بلغ « البلقاء » ونزل بعساكره فى « مؤته » ومنها أغار على « آبل » وهزم قبائل « نعناعة » متخذا أسلوب الحرب الخاطفة والمفاجأة الجريئة فى عماية الصبح .

وإذا كان الشباب طبيعة فى الحرب وفى الحب فأخلق به أن يكون قاعدة التفوق فى كل معترك ومبعث النجاح فى شتى حلبات الحياة ومتعدد فى شئونها وفنونها .

هل هناك خلاف مثلا فى أن أبطال الرياضة شبان . . ؟ وأنه لاقدرة لمن تخطى سن الشباب على احراز كأس السبق أو صولجان القوة . . ! ؟

. . وأنه ليس بمقدرة لاعب أن يبقى فى مركز البطولة بعد سن الثلاثين ، سواء فى ملعب الكرة أو حلقة الملاكمة* وغيرها ، وإنما يخضع لحكم الواقع

* لعل أكبر وأحدث مثل – هو ما جرى أخيراً لبطل العالم فى الملاكمة محمد على كلاى ، الذى عاد إلى الحلقة بعد أن تعدى سن البطولة وفارقته صبوة الشباب فأحدق به خصمه «لارى هولمز» وهزمه بالضربة القاضية الفنية ، بعد أن فقد القدرة على المناورة ووقف عاجزاً بجوار الحلقة يتلقى سيلاً من الضربات الموجعة حتى فقد صوابه وأعلن الحكم هزيمته «٣ أكتوبر ١٩٨٠».

ويرضى بحدود الشباب . . فيعتزل من تلقاء نفسه قبل أن يلقى هزيمة « ووترلو » . .

فإذا انتقلنا من ميادين الرياضة إلى ساحات العلم والاختراع وجدنا بصمات الشباب على كل عمل كبير والتقينا بالمبتكرات والمنجزات مقرونة بأسماء علماء شبان عباقرة .

كان أرشميدس فى باكورة عمره يرنو ببصره ويقلب فكره فيما حوله من أمور مبهمة . . ولكن كانت تبهره ومضات من الأمل فى الوصول إلى حقائق كبيرة لايدركها أصحاب النظرة السطحية أو الذين لا يعرفون الصبر . . وهدته فطانته إلى اختراع « الرافعة » . . حتى كان بوسعه أن يحرك العالم كله بتلك النظرية الفذة ، كذلك تفتق ذهنه للمشع عن « قاعدة أرشميدس » للأجسام المغمورة فى المياه . . واخترع « الطنبور » وهو يتمشى حالما على ضفاف نيل مصر ويستطلع امكانيات رى الحقول من الترع والقنوات . . فلقد عاش العالم العظيم أرشميدس ضحوة عمره فى الاسكندرية .

واستطاعت مارى كورى أن تنبغ فى العلوم وأن تسلك سبيلا وعرا وطويلا حتى اكتشفت « الراديوم » لعلاج داء السرطان الوبيل . . وحتى حصلت على ثلاث شهادات « دكتوراه » . . وجائزة « نوبل » مرتين ! . فى زهوة العمر وميعة الصبا .

وفى الرابعة عشرة من سنى حياته كان « لودفيج فان بيتهوفن » يقود أعظم أوركسترا فى أوربا – أوركسترا أمير كولونى – وذكرت المراجع العالمية أن الثلاثين سنة الأولى من عمر بيتهوفن كانت المرحلة الفنية الولادة فى حياة أعظم الموسيقيين قاطبة وأخلدهم ذكرى .

وقد كتب شكسبير مسرحياته الفذة بين عاميه العشرين والثلاثين ، ومنها كوميديا الأخطاء وهنرى السادس وغيرهما من المآسى التاريخية والمشاهد الهزلية التى حفلت بالتحليلات العميقة للنفس البشرية وامتلأت بالحكمة والعظات والجمل المشهورة التى أطلقها بلسان شخصيات رواياته الخالدة والتى شنفت الأسماع بشتى اللغات وتداولتها الأجيال فى جميع أقطار الأرض حتى يومنا هذا . . ولاغرابة إذن فيما قيل عن شكسبير أنه – وليس الهند – أعظم درة فى تاج امبراطورية الانجليز . . التى كانت !

وقبل أن يبلغ مايكل انجلو العشرين من عمره كان يضرب بمعوله فى قطع هائلة من الرخام ويستخرج بسرعة فائقة شخصيات رائعة . . كان يقول أن فى داخل كل جبل شخصا محبوسا . . وأنا أريد أن أفرج عنه ! ولقد اقتنعت جميع مدارس الفنون المختلفة وسجلت أن مايكل أنجلو هو أبرز شخصية فى عالم النحت والرسم ، وأنه جمع فى اهابه العظيم بين النحات والرسام والمزخرف . . والأديب !

وفى ريعان الشباب خرج البرت أينشتين ليعلن على العالم « نظرية النسبية » وأصبح اسمه فى قائمة العباقرة الذين لايتكررون . . ودانت له جائزة نوبل فى الفيزيقيا من أجل بحوثه الفذة ونتائجه الباهرة عن ظاهرة « الكهروضوئية » . ونرى اليوم اسم أينشتين لامعا متوهجا فى قائمة أعظم مائة شخصية خالدة الفكر والأثر ، فى التاريخ كله .

وفى ميعة الشباب تألقت « عذراء أورليان » ذات السادسة عشر ربيعا ، وقد رفعت العلم فى وجه أعداء بلدها وأقسمت أن تقضى على الاحتلال الانجليزى لوطنها . . فرنسا ، فوضعت يدها فى يد الأمير الذى سلمها قيادة الجيش

والشعب . . وإذا هى تحرز النصر وتتوج شارل السابع . . فلما نجح دهاء الانجليز فى أسرها واحراقها ! انتقلت جان دارك إلى قلوب الملايين فى شتّى أنحاء الدنيا وصارت الموضوع المفضل لأشهر المصورين والقصصيين ، وكُتِبتْ عنها أحسن مؤلفاتهم أشهر الكتاب من جميع الأجناس شيللر وفولتير وشكسبير وأناتول فرانس وأندرسون وبرنارد شو . . .

ولنقف فى المقدمة عند هذا الحد . . حتى نترك صفحات الكتاب لأصحابه الشبان . . عباقرة الدنيا .

السيد فرج

نماذج من الشرق

- مصطفى كامل
- خالد بن الوليد
- مهاتما غاندى



مصطفى كامل

● لو لم أكن مصرياً.. لوددت أن أكون مصرياً

مصطفى كامل

إذا استمع شباب اليوم إلى النشيد الوطنى المصرى ، وشنفت اسماعهم أولى كلماته : « بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى » فلعلهم يذكرون صاحب هذا القول المأثور ، رجل الوطنية الصادقة . . زعيم مصر الشاب . . وبطل النضال من أجل الاستقلال . . مصطفى كامل .

كانت حياة الزعيم الشاب نموذجا للإيمان بالوطن ونبراسا يضىء للشباب طريق الجهاد ويغرس فى نفوسهم كراهية الاحتلال ويملأ وجدانهم أملا فى أحقية مصر للاستقلال والتقدم ويرسل فى سمع الدنيا صوت مصر صاحبة المجد القديم والحاضر المتوثب ، ويعلن الاصدقاء والخصوم بأن ابناء مصر سيناضلون حتى الموت فى سبيل تحريرها وأعلاء شأنها .

بــــلادى بـــــلادى لك حـــبى وفؤادى
لك حيـــاتى ووجودى لك دمى ونفســـى

لك عقـــلى ولسانى لك لــبى وجنانى

فأنت أنت الحياة .

ولا حياة إلا بك يا مصر . .

* * *

ولقد كتب عن مصطفى كامل كثيرون من المؤرخين ورجال السياسة والصحافة والأدب الذين عاصروا حياته وجهاده ، والذين جاءوا بعده فكتبوا سيرته وأطنبوا فى ذكر صفاته ومزاياه منذ مولده وأيام تلمذته ، ونضاله فى أوربا لتوضيح حق مصر وجدارتها بالاستقلال واظهار سوءات الاحتلال ، ثم نضاله فى مصر وانشائه الحزب الوطنى واصداره جريدة اللواء ، لسان حال حزبه وصفحة جهاده . .

ولكننى آثرت أن اتناول حياة مصطفى كامل من خلال صور وأحداث ومواقف تتيح لشباب مصر رؤية ذلك الزعيم الشاب الوطنى النزيه الذى يعتبر مثلا أعلى للشباب المناضل وقدوة مثلى لمن اراد خدمة وطنه بجدية واستقامة ورفع شأن أمته أمام العالمين .

ويمكن القول بأن حياة مصطفى كامل تتلخص فى عدة سطور . .

كان طالبا نجيبا متفوقا وقد جمع إلى التفوق فى الدراسة خلقا كريما ونفسا أبية ، وقد اشتهر بين اقرانه بالاعتداد بالنفس والشجاعة الأدبية ونظافة القلب واليد واللسان . . إلى جانب مهارة فى التحرير ولباقة فى الحديث وقوة تأثير فى الخطابة والحوار .

ولقد أتم مصطفى كامل دراسة الحقوق فى فرنسا ، وحبب ذلك إليه أن يسمع الفرنسيين صوت مصر ويجتذب كتابها وساستها ليؤيدوا نضال مصر ضد

الاحتلال البريطانى .

وكأنما بعث القدر مصطفى كامل فى أشد الأوقات حاجة إلى الجهاد فيلتف حوله ابناء مصر ويهز أعطافهم ويحرك مشاعرهم الوطنية ببياناته المؤثرة وخطاباته الملتهبة من أجل التحرر الوطنى والعزة القومية . . وتصحو مصر بعد غفلة وتنهض بعد قعود وترى تباشير الحرية من خلال دياجير الظلمة التى اشاعها الاحتلال ، وتسمع نشيد الاستقلال بعد أن ران الاستعمار على النفوس وحرمها التفكير وافقدها الأمل واعدها للاستسلام والضياع .

ولقد تأثرت حياة مصطفى كامل باعباء نضاله ، فلم تقو صحته على احتمال الجهد الجبار الذى كان ينأو به ، وعاجله المرض فما أقعده عن الفكر والعمل وما اسلمه للقنوط واليأس حتى آخر يوم من عمره ، وقد حل به الموت وهو فى ريعان الشباب ولم يتجاوز أربعا وثلاثين سنة ! ؟

(١)

فى أيام الطلب ، دخل ناظر المعارف على باشا مبارك إلى الفصل الذى كان من تلاميذه مصطفى كامل ، فنظر إليه وطلب منه أن يجيب على سؤاله :

« ماذا تنوى أن تصنع بعد اتمام دراستك الثانوية ؟ »

وقف التلميذ الصغير فى حضرة الوزير الجليل بثبات وأناة ، وأجاب بلاتردد ولاتلعثم وإنما بصوت رصين متزن :

« سألتنى يا سعادة الناظر الخطير – سألت الله لك الرفعة

والارتقاء – ان اقول كلمة فيما أريد أن اصنع بعد نيل شهادة الدراسة الثانوية . . فأنا آكل هذا الأمر إلى إرادة الخالق عزّ وجلّ ، فلتكن مشيئة الله .

بيد أنى استنتجت مما كان يرويه لى المرحوم والدى من أحاديث كبار الرجال ، وما درسته عن استاذى العلامة المفضال أحمد بك نجيب ، معلم التاريخ ، من سير الفاتحين الأبطال ما ايقنت منه أن أعظم الرجال شأنا هو من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل . . المحرر الذى يكتب ويخطب ويضرب الامثال للناس ، كما كان يصنع استاذى مبشرا بما فى الحرية من العزة والحياة . . منذرا بما فى الذل من الموت والصغار . . والله تعالت حكمته وجلت قدرته يوفقنى إلى ذلك . . »

(٢)

نال مصطفى كامل اجازة الحقوق فى سنة ١٨٩٤ من جامعة تولوز ، بفرنسا ، وعلى الفور بدأ حياته السياسية لاعلان حق مصر فى اجلاء المستعمر وفى أن تأخذ طريقها صعدا مع الدول الحرة المتقدمة . . وتصادف أن تقابل سفير الوطنية المصرية بضابط انجليزى كبير هو الكولونيل بيرنج – شقيق لورد كرومر سفير الاستعمار وممثل الاحتلال الانجليزى فى مصر – ودار بين القطبين حديث هام وحوار جرىء وأعلن كل منهما رأيه ووجهة نظر بلاده ، فكان للفتى الوطنى الحق والغلبة ، وشاع أمر هذا الحوار وذاع فى عدة أقطار ونشرته صحيفة

الأهرام القاهرية فى عددها الصادر يوم ٢٨ فبراير ١٨٩٥ تحت عنوان « حديث ذو شأن » وضح فيه تماما غلواء الضابط الانجليزى الذى تتحدث دولته بلغة القوة ويعتمد منطقه على السيف والمدفع ، بينما أبرز الوطنى الشاب حجة مصر وحقها فى الحرية والسيادة ، وناشد دول أوربا وشعوبها أن تقف فى وجه المستعمر الغاصب وأن تؤازر مصر فى نضالها المشروع ، اكراما لحرية الاوطان وانتصارا لكرامة الإنسان .

(٣)

اراد مصطفى كامل أن ينبه شعب مصر إلى حقه فى حياة حرة متقدمة وأراد فى نفس الوقت أن ينبه شعوب أوربا إلى سوءات الاحتلال الانجليزى وحق الشعب المصرى فى الاستقلال ، فسافر إلى باريس ملبيا ماساور خاطره من أن تؤازر فرنسا مصر فى مطلبها العادل وحقها المشروع ، ورغم ماتتطلبه تلك الدعوة من جهود جبارة ونفقات طائلة يتولاها بنفسه . . فقد أخذ يتصل بالشخصيات والمجتمعات السياسية والأدبية ، وكان فى مقدمة من اعترف بمصطفى كامل واعجب بشخصيته ونضاله ووطنيته الأديبه الفرنسية جولييت آدم التى آزرت دعوته وساعدته فى نشر آرائه وكتبت كثيرا عن المسألة المصرية .

ومن صور النشاط الذكى الذى كان مصطفى كامل يقوم به فى الخارج أنه قدم إلى مجلس النواب الفرنسى لوحة فنية رسمها فنان مبدع وكانت تمثل فرنسا واقفة أمام قوس نصر يجرى تحته نهر النيل ، وقد نهضت مصر على شاطئيه ،

ولكن كان يحول بينها وبين التقدم جندى انجليزى شاكى السلاح . . بينما جماعة من شباب مصر يتجهون بانظارهم وافكارهم وآمالهم إلى فرنسا لكى تساعدهم على فك أسار مصر وتحطيم قيودها ، وقد نقشت على تلك اللوحة التذكارية – باللغة العربية والترجمة الفرنسية – هذه الأبيات :

أفرنسا ، يامَنْ رفعتِ البلايا عن شعوبٍ تهزّها ذكراكِ
أنصرى مصرَ . . إن مصر بسوءٍ واحفظى النيلَ من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائقَ حتّى تجتبى الخير أُمة تهواك

وقدم مصطفى كامل هذه اللوحة إلى مجلس النواب الفرنسى مع كلمة جاء فيها :

« جاءت الامة المصرية تستغيث بهذه الامة الكريمة : فرنسا : التى حررت عدة من الامم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟

وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها ؟

إن ذكر اسم مصر ، عندما تكون حرة مستقلة ، بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ، ليس بالفخار القليل . .
فلتحيا فرنسا محررة الأمم » .

(٤)

لم يكن جهاد مصطفى كامل مجرد شعارات تذاع أو خطبا تلقى فى المجتمعات وإنما امتاز جهاده ايضا بالحركة والاتصالات المستمرة والرسائل الفياضة بالوطنية والمعبرة عن مشاعر مصر الثائرة ، وكانت تحركاته المتتابعة فى أوربا تماثل الحملات التى تلفت الانظار وتلتقى بالقيادات والشعوب فتحدث أثرها فى النفوس وتؤثر فى الرأى العام العالمى ، وبذلك كان صوت مصر يبلغ عواصم أوربا ومجتمعاتها السياسية ويظهر الاحتلال الانجليزى على حقيقته وقد انهارت دعاواه وبرزت سوءاته فاتسعت دائرة المعارضة له والنقمة عليه .

ولم يكن مصطفى كامل طالب شهرة أو سلطة أو رفعة شخصية لاسمه ونفسه ولكنه كان رجلا وطنيا لاتعنيه إلا شئون وطنه بالغة ماتكون النفقات والتضحيات بالجهد والمال* .

ولعل أبلغ مثل لما كان عليه مصطفى كامل من وطنية مدعمة بالنزاهة والشرف والترفع إنه حين سافر إلى الآستانة واستقبله سلطان تركيا بالترحاب

---

* قال استاذ الجيل الفيلسوف الاستاذ أحمد لطفى السيد باشا عن مصطفى كامل فى كتابه « قصة حياتى » :

« ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية . . حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى . . فإذا ذكرت مصطفى كامل فإنما تطرى الوطنية . . وإذا قلت الوطنية فإن أول مايتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل . . كأنما هو والوطنية شىء واحد . . ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية » .

والاعجاب ، ابدى السلطان دهشته من هذا الشاب المليء بالوطنية للفطور على البذل والعطاء ، وكان يظنه رجلا كبيرا أو شيخا واسع التجربة قديم الخبرة صاحب نفوذ قبلى أو سليل مجد اقطاعى . . نعم ، وجد السلطان أمامه شابا وطنيا فى الثانية والعشرين من عمره لايعرف له هدفا ولاحياة إلا مصر .

وقد رغب السلطان فى أن ينعم عليه برتبة أو نشيان ولكن مصطفى كامل أبى أن يشجع ذلك الاتجاه ، بل لقد حذرته فطانته من أن مثل ذلك الانعام سوف يستغله خصومه ويجعلهم يتهمونه بأنه يسعى إلى المظاهر والرتب والمغانم الشخصية . وبذلك فوت الفرصة على خصومه وانتصر لكرامته . . وهو صاحب القول المشهور بأن من يخطىء فى حق أمته مرة فلن يصلح لخدمتها بالمرة .

صحيح أن مصطفى كامل كان يعمل على توثيق الروابط بين مصر وتركيا كى يحصل على تأييد تركيا ضد الاحتلال البريطانى ، وصحيح أن السلطان عبد الحميد – بعد انتصاره فى الحرب البلقانية – انعم على مصطفى كامل برتبة « المتمايز » سنة ١٨٨٨ ثم الرتبة الأولى ، كما أنعم عليه بعد ستين برتبة الباشوية . . إلا أن هذا لايعنى بأى حال أن مصطفى كامل كان يسعى إلى هذه الرتب أو أنه كان يريد شيئا لنفسه .

وفى ذلك قال المؤرخ النابه الذكر جرجى زيدان* عن مصطفى كامل :

« كان رحمه الله عفيف النفس نزيه الخلق صادق اللهجة عالى الهمة ، لا يلذ له من أحوال الحياة غير التفكير فى الغاية التى وقف عليها ، وهى خدمة بلاده بأشرف السبل وانفعها » .

* كتاب « بناة النهضة العربية » تأليف جرجى زيدان

(٥)

ولقد كان مصطفى كامل طموحا ومتفائلا ولكن الأحداث جاءت على غير ما كان يتوقع . . كان يثق بفرنسا وافكار ثورتها ومبادئها التقليدية فى تأييد كفاح الشعوب المناضلة من أجل الحرية . . ولكنه فوجىء بأن فرنسا تخرج عن الخط وتعدل عن سياستها وتوقع مع أنجلترا « الاتفاق الودى » فى ٨ يناير ١٩٠٤ وبه حصلت انجلترا على اطلاق يدها فى مصر وحصلت فرنسا مقابل ذلك على إطلاق يدها فى المغرب العربى ، واقرت النمسا هذا الاتفاق . . وبذلك سقط ركن وطيد كان مصطفى كامل يعتز به ويستند إليه .

كان « الاتفاق الودى » صدمة لمصطفى كامل فى حليفته فرنسا فقد رآها تتخلى عن دورها التقليدى فى مساعدة الشعوب على التحرر وتتنكر لبيانها عن حقوق الإنسان وندائها بالحرية والاخاء والمساواة .

كذلك كان تأييد تركيا لمصطفى كامل بمثابة ركن وطيد ، وإذا به ينهار فجأة ! ذلك أنه حدث خلاف بين تركيا وانجلترا حول حدود مصر ، وحاولت تركيا أن تقتطع سيناء من مصر ولكن انجلترا عارضت هذا الاتجاه وشددت النكير على تركيا التى رضخت وسلمت ، ثم تخلت تركيا عن مساعدة شعب مصر فى نضاله ضد الاستعمار .

ويمكن القول بأن هاتين الهزيمتين السياسيتين أو انهيار هذين الركنين الاساسيين كان كفيلا بانهيار قوى مصطفى كامل المعنوية وانهاء كل أمل أو

طموح فيما أراده أو سعى إليه . . غير أن مصطفى كامل استمر بعد كل ذلك طلق المحيا قوى العزم كبير الأمل ، فما من قوة تحوله عن طريقه وما من هزيمة تدفعه إلى اليأس . .

أليس مصطفى كامل هو القائل :

« لامعنى للحياة مع اليأس ، ولامعنى لليأس مع الحياة » !

(٦)

. . ووقع حادث دنشواى سنة ١٨٩٥ .

وهو من أسوأ وأفظع ماعرف من جرائم الاستعمار ، وقد تمثل فيه الظلم الفادح والاستهانة بأرواح الناس والتفريط فى كرامة الشعوب التى نكبت بالاحتلال .

وخلاصة الحادث أن فرقة من العساكر الانجليز كانت فى ترحالها من القاهرة إلى الاسكندرية فمرت بقرية « دنشواى » من قرى محافظة المنوفية ، فوجدوا كثرة من الحمام يطير فوق اجرانها ، فلذّ لهم الصيد بالبنادق . . وخرج الأهالى على صوت الرصاص وحاولوا منع المعتدين فلم يرعـو منهم أحد وإنما استمروا فى عبثهم وغلوائهم واشتبكوا مع الأهالى فى عراك انتهى باصابات وجروح ، واصيب أحد الجنود الانجليز بضربة شمس قضت على حياته . . وسرعان ما اظهر المحتـل الغاصب سطوته وكشـف عن غلوائه وعنجهيته ، إذ صدر قرار بتشكيل محكمة عسكرية مستعجلة فحكمت فوريا بإعدام أربعة من الأهالى وجلد

ثمانية وحبس عدد آخر من الفلاحين المعتدى عليهم ! وتم تنفيذ الحكم بطريقة همجيه وحشية تنم عن التجبر والسيطرة وشهوة الانتقام ، وقد نصبت المشانق أمام بيوت الأهالى وبجانبها معدات الجلد ، واستمرت عمليات الاطاحة بالرءوس وهرى الابدان امام انظار الفلاحين المساكين وهم يشهدون ابناءهم يسقطون تحت المشانق ويجلدون بالكرابيج ذات الثمانية ذيول . .

ألا أنه مشهد درامى أفظع من كل خيال وأبعد عن كل مشاعر آدمية ! ؟

وأصبحت حادثة دنشواى وصمة عار فى جبين « الامبراطورية البريطانية » .

وقد رأى مصطفى كامل بثاقب فكره وبعيد نظره أن يستغل هذا الحادث المشين للانجليز فراح يعبىء مشاعر مواطنيه ضد الاحتلال كاتبا وخطيبا فانتبه الشعب وثارت غضبته واشتد كرهه للانجليز وكانما اصابت حادثة دنشواى بدن كل مصرى ، كما أنه اسمع العالم كله بتلك الحادثة الاستعمارية الشنعاء فاستقبلتها دوائر السياسة والصحافة والمجتمع الغربى باستياء شديد وثارت من أجلها نفوس الأحرار وتحركت أقلام الكتاب . . حتى فى انجلترا ذاتها ! واضطر عميد الاحتلال الانجليزى فى مصر لورد كرومر – وقد كان الحاكم غير المتوج – أن يعتزل منصبه ، واعتبرت الدوائر السياسية حادثة دنشواى ضربة للاستعمار ، كما استطاع مصطفى كامل بفضل جهوده واتصالاته أن يحصل على عفو عن البقية الباقية من منكوبى دنشواى ، وذلك فى ٨ يناير ١٩٠٨ .

(٧)

وإذا كانت دعوة مصطفى كامل فى الدول الأوربية قد أصابها انتكاس فى فرنسا وتركيا لأن العلاقات بين الدول لم تعد علاقات مبادىء وإنما علاقات

مصالح . . فقد حدث أيضا نوع من الاخفاق تعرضت له جهود مصطفى كامل فى مصر بسبب التطلعات الحزبية والفردية فقد بدأت تظهر أحزاب وزعماء ، وكل يريد لنفسه الشهرة أو المكانة . . غير أن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل أو يوهن عزمه أو يحوله عن جهاده .

عن الأمر الأول الخاص بتقلب بعض الدول الأوربية قال :

« فليعلم اعداء مصر إننا نطلب لمصر الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها . . وإننا إذا خطبنا ود أمة أو دولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بان من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » .

وهذا بلاريب كلام سياسى فطن وزعيم حكيم .

أما عن الخلاف الداخلى الذى بدأت بوادره تظهر فى مصر بين حزب اللواء وغيره من الاحزاب المصرية التى تعاقبت بعده ، فلم يقض على أفكار وتطلعات مصطفى كامل ، فقد كان له هدف لاينحرف عنه ، بل لايعرف له حياة غير المضى إليه ، وكانت له من اخلاقه الشخصية موانع تحول بينه وبين القنوط واليأس مهما اشتدت عليه الاحداث أو تعرض هو شخصيا للضرر أو الخطر .

وليس أدل على اخلاصه التام لمبادئه من الأدلة التالية :

١ - ثباته فى المبدأ الذى قام فى نفسه منذ كان تلميذا لايسمع صوته إلا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطنى وصاحب الألوية الثالثة* . . له دعوة واحدة كانت تتجلى فى مطالبه إذا كتب أو خطب

* صحيفة اللواء ثم طبعتها باللغة الإنجليزية وطبعتها باللغة الفرنسية .

أو ناقش أو باحث بين الاصدقاء أو الاعداء بالعربية أو الافرنجية على سواء .

٢ – انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه فى سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولاجلس لشرب أو لهو ، ولا التفت إلى جمال أو طرب . . لايلذ له غير التحدث بالوطن . . أو الاستقلال . . أو الجلاء .

٣ – اجماع الذين عاشروه من رفقائه واصدقائه على حبه ، واعتقاد الاخلاص فيه ، فضلا عن الآخرين مما لايتأتى لغير المخلصين . لأن الإنسان إذا سعى فى مشروع عمومى طمعا بمال أو جاه لاتلبث حقيقة حاله أن تنكشف لعشرائه الاقربين أو شركائه فى عمله فينفضوا من حوله ، كما أصاب كثيرين من زعماء الاحزاب فى العالم القديم أو الحديث ، ففسدت نيات اصحابهم وذهبت مساعيهم أدراج الرياح .

وقد يبقى مع الزعيم للمنافق اناس يداجونه ويداجيهم التماسا للكسب . . ولكن اصحاب مصطفى كامل ثبتوا فى ولائه حيا وميتا ، وهم يستميتون فى سبيل نصرته ، وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم أكبر منه سنا وأوفر مالا ، وبعضهم أغزر منه علما . . وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من تصدره فى مجالسهم ، ولاداخلهم الحسد من رياسته عليهم .

(٨)

ويأتى المشهد الأخير.

مصطفى كامل . . الزعيم الشاب . . والوطنى القدوة . . والكاتب النحرير . . والخطيب المؤثر . . على فراش المرض . . والموت يطوف حوله .

لم يكن المرض قريب العهد بمصطفى كامل وانما اصابه قبل وفاته بأكثر من عشر سنوات . . فكان يكافح الانجليز ويكافح للمرض . . فى آن معا .

وكان يقول :

« انني لن أعيش طويلا ، وسأموت قريبا ، فلا تضيعوا
الوقت واسرعوا فى العمل . .
إنني اشعر فى اعماق نفسى بقرب نهايتى »
وأشار لمن حوله إلى صاحبه محمد فريد* قائلا :
إذا مت فليحمل اللواء هذا الرجل النبيل .

وقد اعرب مصطفى كامل عن شعوره باقتراب منيته لخلصائه وللملتفين حوله ، وظهر ذلك واضحا فى خطابه التاريخى ، الذى القاه يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ واشتهر بأنه « خطاب الوداع » :

دهش الذين كانوا لايرون فينا إلا أمواتا تتحرك !
كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى
دبت فى الأمة ، وقالوا : عجبا . . ايحيا هذا الشعب
اتنهض مصر بنفسها ؟ اتعمل للاستقلال وحدها ؟
اتقدر على تحقيق مطالبها بمحض ارادتها ؟

---

* محمد فريد ١٨٦٧ – ١٩١٩ سياسى مصرى من أخلص وأنزه السياسيين الذين عرفتهم مصر ، وقد تخرج فى مدرسة الحقوق ولكنه اعتزل الوظائف وانضم إلى الحزب الوطنى وبذل جهوده وأمواله فى سبيل مصر ، وكان فى مقدمة انصار مصطفى كامل وحوارييه ، واصبح رئيسا للحزب الوطنى بعده . وقد تهددته السلطة وحاولت القبض عليه فهاجر إلى أوربا مجاهدا وداعيا لقضية بلاده فى المؤتمرات والمحافل السياسية والدولية . وقد توفى فى المانيا سنة ١٩١٩ ونقل جثمانه إلى القاهرة .

اتقاتل اليأس والقنوط ، وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟ !

أجل ، ياأعداء مصر ، وألف مرة أجل .

إن مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا واعمارنا إلى اشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها . . فلا الدسائس تخيفنا ولا الشتائم تؤثر فينا ولا الخيانات ترعجنا . . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم ، لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا واحدا لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا :

كونوا أسعد حظا منا وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على ايديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد المطالبة بحقوق الوطن والحرية والاستقلال المقدس . .

بـــلادى بـــلادى لـك حـــبى وفؤادى
لك حياتى ووجودى لك دمـى ونـــفسى
لك عــقلى ولســانى لك لبى وجـــنـــانى

فأنت أنت الحياة .

ولاحياة إلا بك يامصر . .

وقد أحسن المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى فى جولته بين المراجع واستطلاعه شهادة زملاء مصطفى كامل وخلصائه فاستطاع أن يرسم المشهد الأخير ويصف

ساعة النهاية فى حياة الزعيم الوطنى الخالد* .

كانت مصر قد علمت باشتداد المرض على زعيمها الأكبر ، فهلعت قلوبها وارتاعت نفوسها واتجهت بآمالها إلى الله داعية متضرعة أن يبقى لها ابنها البار ، الوفى لخدمتها المدافع عن حريتها ، وهرعت الوفود إلى داره تسأل عن صحته .

وفى يوم السبت ٨ فبراير – قبل وفاته بيومين – زاره الخديو عباس حلمى الثانى ، فنهض له الفقيد من فراشه واستقبله فى ابتهاج ونشاط كأن لم يكن به داء ، وعند توديعه قال له :

« لى رجاء ياأفندينا ، وأنا أشعر الآن بقرب الأجل أن تعطف على الحزب الوطنى فإنه أمل مصر ، وقد وصلنا إلى نجاح كبير فى مسألة دنشواى واخراج اللورد كرومر وتغيير وزارة مصطفى فهمى وإنشاء مجالس المديريات وانتصارنا لتركيا فى مسألة طابة » .

فطمأنه الخديو ، وتمنى له حياة طويلة .

وقد سأل مصطفى كامل طبيبه « الدكتور صادق رمضان »

هل هناك أمل !

– فرد الطبيب النجيب بقول من كلام مصطفى كامل :

« نعم : لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة »

قال مصطفى كامل :

« بل إنى أذوب الآن ، وعما قريب أموت » .

---

* كتاب « الساعات الأخيرة لطائفة من أعلام الشرق والغرب » بقلم طاهر الطناحى – مطبوعات دار الهلال .

ثم التفت إلى صديقه أمير الشعراء أحمد شوقى ، وقال له فى ابتسامة حزينة :

سوف ترثينى ياشوقى . . أليس كذلك !

فلم ينطق شوقى وإنما نطقت دموعه

* * *

وفى الساعة العاشرة من صباح الاثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ دخل عليه شقيقه على فهمى كامل ، وزميله ومعاونه وخليفته محمد فريد ، وبعض صحبه فاتجه إلى فريد قائلا :

« تشجع يافريد ، واستمر فى عملك بحكمة ، ليسهل علينا بلوغ الأمل » .

وكانت آخر كلماته :

مسكينة يامصر ! ؟

وصعدت روحه إلى بارئها وانتقل إلى عالم الخلد

أما رثاء شوقى ، فقد جاء فى قصيدة عصماء مطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان * قاصيهما فى مأتم والدان

وجاء فيها :

دقات قلب المرء قائلة له * ان الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها * فالذكر للإنسان عمر ثان

وبيت القصيد :

لو كان للذكر الحكيم بقية

لم تأت بعد . . رثيت فى القرآن

وفى القصيدة اشارة لآخر لقاء بين شوقى ومصطفى كامل ، قبل موته بيومين :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والـداء ملء معالم الجثمان
يبغى ويطغى والطبيب مضلّل
قنط ، وساعات الرحيل دوانى
ونواظر العوّاد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعانى
تملى وتكتب والمشاغلُ جمةٌ
ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهششتَ لى حتّى كأنك عائدى
وأنا الذى هدّ السقامُ كيانى !
ورأيتُ كيف تموت آسادُ الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه
من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبة الشجون لخاطرى
لنظمت فيك يتيمة الأزمان
وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت
فتعود سيرتها إلى الدوران

* * *

ثم ختمها بقوله الرائع :

علّمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبرٌ أبرّ على عظامك حانى
اقسمت انك فى التّراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

* * *



خالد بن الوليد

«٣٤ قبل الهجرة – ٢٢ هجرية»

قال عنه رسول الله ﷺ :
سيف من سيوف الله
وقال عنه الخليفة أبو بكر الصديق :
لقد عقمت النساء أن يلدن مثل خالد
وقال عنه الخليفة عمر بن الخطاب :
رحم الله أبو بكر ، أنه كان أعلم بالرجال مني .

نجم شباب البادية ، وطليعة فرسان القائد محمد ﷺ وهازم الفرس والروم ، وأحد القادة الكبار فى تاريخ الحروب .

هو خالد بن الوليد ، فتى بنى مخزوم ، نشأ فى الجاهلية وحارب المسلمين ، ثم أضاء الله قلبه بالإسلام فى فجر شبابه فصار سيفا من سيوف الله سلّه على المشركين .

وقد عرف خالد الحرب يافعا (وخاضها) شابا لاتعوزه الشجاعة وفارسا لايرتضى القعود . حارب ضد المسلمين فكان العدو المتمكن والمهاجم الحصيف ، ثم انتقل إلى جانب الحق مستظلا براية الإسلام ومستشرفا بتقدير الرسول الكريم ﷺ حتى دانت له قيادة الجيوش فأظهر من البراعة فى وضع الخطط والشجاعة فى تنفيذها مارفعه إلى مصاف القادة الممتازين .

وإذا ماطاف الشباب بصفحات التاريخ العربى فسوف يجدون فى خالد بن

الوليد مثلا أعلى ونموذجا يحتذى كقائد عظيم وإنسان كبير له فى الحرب جولات وصولات وانتصارات ، ولكنه لم يسع إلى مغنم شخصى ولم تخدعه مكانته عن احترامه للنظام وطاعته للرؤساء ، ولم تحوله شهرته عن واجبه كجندى يجلله الوفاء والولاء .

بطل « أحد »

كان خالد بن الوليد قوى الجسم مهيب الطلعة فارسا مقداما ورث عن أبيه قيادة « الأعنة » أى الفرسان ، وقد كان قائد الفرسان فى وقعة « أحد » ضد المسلمين ، أبدى فى هذه المعركة براعة وجسارة . . فلما سنحت له الفرصة ووجد فى صفوف المسلمين ثغرة قام بهجمة مضادة خاطفة ومفاجئة فاخترق الصفوف وأحدث فى جيش المسلمين خسارة فادحة انقلب معها ميزان المعركة حتى أشيع « أن محمدا وأبا بكر وعمرًا قد لقوا حتفهم » . . ولكن حدث تماسك فى اللحظات الحاسمة وافاق المسلمون من المفاجأة وحاربوا ببسالة حتى استعادوا الموقف ، ودان لهم النصر بعد عناء بالغ وخسائر جسيمة .

كذلك كان خالد مصدر قوة لقومه فى معركة الخندق . ثم هداه الله للإسلام . . فكان ذلك بشيرا له بالمجد ، وواتته الفرصة لقيادة جيوش المسلمين فى غزوات وفتوح كبرى أبدى فيها من المهارة والحصافة مالايتاح لغير القواد العظام .

سيف الله

تلقى خالد من أخيه رسالة يدعوه فيها للإسلام ويروى له أن رسول الله صلوات الله عليه قال :

« ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحدّه
مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدّ مناه على غيره » .

وامتثل خالد للدعوة الكريمة وأعلن إسلامه ، وقال :

« يارسول الله : قد رأيت ماكنت أشهد من تلك المواطن
عليك معاندا عن الحق ، فادع الله يغفر لى » .

فأجابه النبى ﷺ :

« إن الإسلام يجُبّ ماكان قبله . .

الحمد لله الذى هداك . وقدكنت أرى لك عقلا ، ورجوت
ألا يسلمك إلا للخير . . »

وأصبح خالد من جنود المسلمين ، واشترك فى كل المعارك المحلية حتى للإسلام النصر المبين .

ثم انتقل إلى ساحات حرب بعيدة فى الجزيرة وفى العراق وفى الشام ، وواجه جيوش الفرس والروم فتصاعدت خبرته وتعددت انتصاراته وازداد اشراق عبقريته .

القيادة البصيرة

كان أول قتال اشترك فيه خالد بعد إسلامه هو حملة « سرية مؤته » التى جردها الرسول عليه السلام إلى البلقاء لتأديب المعتدين الغسانيين . . وفى هذه المعركة استشهد القادة الثلاثة الأبرار : زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة . . فاجتمعت الكلمة على تنصيب خالد بن الوليد قائدا . . فأسرع بدراسة الموقف ، فإذا هى معركة غير متكافئة ، وكان المسلمون

قد حلت بهم هزيمة شديدة وكثر عليهم أعداؤهم فلم تملك خالد فطرة المجازفة وإنما ملكته فطرة القيادة البصيرة . . فأعمل الحيلة واستخدم التمويه واصطنع الاستعداد للهجوم حتّى وقع فى روع العدو أنه سيقاتل من غرّة . . فلما جنّ الليل كان جيش المسلمين قد أجرى عملية انسحاب سليمة وارتد بأمان حتّى نجا من خطر كان جاثما وهزيمة كانت وشيكة .

وفعل خالد فى هذه المعركة مايفعله القائد المحنك فى المواقف الصعبة وفى عمليات الانسحاب الحرجة ، فقد استخدم قتال المؤخرة حتّى ضمن لقواته السلامة . .

وفى هذه المعركة اندقت فى يد خالد تسعة سيوف ، وظفر باللقب الغالى الذى أضفاه عليه رسول الله ﷺ وهو : سيف الله .

غزوة حنين

عندما نفرت قبائل همدان من هوزان وثقيف وجشم ، وشقتّ عصا الطاعة ، وأعدت عدتّها لمهاجمة أتباع محمد ﷺ فقد اعطت قيادتّها لمالك بن عوف النصرى الذى قرر أن تخرج القبائل بكل من فيها للقتال ، أى برجالها ونسائها وأطفالها وأموالها ، قاصدا بذلك أن يضع أمام المحاربين مستقبل ذويهم وأن يدفعهم إلى القتال الشجاع والبأس الشديد حماية للنساء والأطفال وذودا عن الشرف والأموال . .

وجاءت أنباء الاستطلاع مخبرة بأن هوازن – عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشاتهم – قد اجتمعوا إلى « حنين » .

فتبسم الرسول القائد ﷺ وقال :

« تلك غنيمة المسلمين غدا انشاء الله » .

وفى الغد جاءت انباء الاستطلاع بأن هوازن ليست فى مكانها أى اختفت عن الانظار ورأى القائد أن يبعث قوة استطلاع بمثابة مقدمة للقوات المتقدمة . . وفجأة قام العدو من مكمنه الذى أحسن الاختفاء فيه والتمويه عليه فضرب ضربته وشدد هجومه وكسب الجولة الأولى بفضل المفاجأة التى أربكت الصفوف وهزّت النفوس لولا أن تداركتها عناية الرسول ﷺ وثباته الواعى وأخذه بزمام المعركة وقيادتها ، فتجمع حوله المقاتلون واشتدت البسالة وتغير الموقف . . فبدأ الكر بعد الفر وحلّت الشجاعة محل الخوار . . ذلك أن المسلمين فى بادىء الأمر عزتهم كثرة عددهم ، وفاجأتهم خطة خصومهم وكادت الهزيمة تودى بهم .

وفى هذه المعركة سقط خالد بن الوليد مثخنا بالجراح وكاد أن يقضى نحبه لفرط شجاعته واقدامه وماتعرّض له من ضربات شديدة . ولاغرو ، فقد كان مطمح أعدائه . . وجاءه الرسول الكريم ﷺ فواساه وأثنى عليه وبارك له .

جاء ذكر هذه المعركة ودروسها فى القرآن الكريم :

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

حروب الردة

اشترك خالد بن الوليد فى حروب الردة من أولها إلى آخرها . . وكانت

البادية قد ارتدت عن الإسلام بعد وفاة محمد ﷺ وأخفقت محاولة المرتدين فى هجومهم على المدينة ، إذ خرج الخليفة أبو بكر بمن معه على تعبئة كاملة فى عتمة الليل وهبط على المرتدين وهم على غير أهبة فى عماية الصباح ، فلم يلبثوا حتى انهزموا وتفرقوا .

ثم أنيط بخالد قيادة الحملة على بزاخة ، لقتال المرتدين فيها ، وقد خرج الخليفة لتوديع الحملة فقال :

« أيها الناس : سيروا على اسم الله وبركاته . .
وأميركم خالد بن الوليد »

وأسرّ الخليفة إلى قائده بأوامره ، قال :

« فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة ، فانى لا آمن عليك الجولة . . واستظهر بالزاد ، وسر بالادلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة . .

واحرص على الموت توهب لك الحياة ،
ولاتقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ،
واحترس من البيات ، فان للعرب غرة !

وإذا لقيت « أسد » و « غطفان » – أسماء قبائل – فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لاعليك ولك . . متربص السوء ينتظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة . .

سر على بركة الله » .

* * *

أما أعداء المسلمين فكان يقودهم طلحة ، وهو ممن لاتعوزهم الجرأة والثبات عن الشدة فلما التقى الجمعان حدث التحام عنيف وقتال شديد وبدأ النصر يلوح للمشركين حتى أن بعض أعوان خالد نصحوه بالالتجاء إلى جبل يعصمه أو يحتمى به ، فقال خالد قولته المشهورة :

« لا أعتصم بغير الله » .

وحارب خالد بشجاعة المحارب وقاد رجاله بحكمة القائد المفطور على النضال فى المواقف الصعبة . . فهزّ صفوف خصومه وحولّ مجرى المعركة وأحرز نصرا مؤزرا .

ولعل خير مايثبت قدرة القائد هو خروجه من المراكز الحرجة وانتقاله بجنده من حافة الهزيمة إلى ساحة النصر.

هازم الفرس والروم

خرج العرب للقاء الفرس والروم فى معارك مصيرية وتاريخية ، أحد طرفيها الإيمان والبسالة ، وطرفها الآخر التمدن والكثرة .

وقد حارب خالد الفرس فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخفق قط فى واحدة منها . كان يسير بجيشه دائما على تعبئة كامله ، فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجيء ، وكان – كما وصفه القائد الحصيف عمرو بن العاص – « له أناة القطاة ووثبة الأسد » فلايهمل الحيطة ولايجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة فإذا جاءت الساعة الحاسمة ضرب ضربته القاضية بقوة وشجاعة وثقة فى النصر.

كان خالد يعمل بأصول الحرب – قبل أن أعلنها نابليون بمئات السنين –

وقد استعمل فى معاركه مبادىء الحشد ، والاقتصاد فى القوة ، والسلامة ، والمفاجأة ، والعمليات الهجومية .

وكانت القيادة فى زمنه تتطلب من القائد نفسه شجاعة ومهارة فنية لأنه قد يدعى للمبارزة ، وقد يواجه خصما قويا - وجها لوجه - كما كانت تتطلب منه تحريك قواته إلى المعركة وتوجيهه لها فى اللحظات الحرجة أو الحاسمة ، وهذا يقتضى أن يكون صاحب فكر استراتيجى وخطط ميدانية .

ولذلك كان خالد جنديا بمعنى الكلمة فى مفهوم زمنه ، فإذا دعى إلى قتال فردى فإنه يلبى على الفور ويقاتل يدا بيد ، وقد حدث له ذلك أكثر من مرة ، وأشهرها نزوله إلى قائد الفرس فتصارعا حتى صرعه خالد .

كما أنه كان قائدا بمعنى الكلمة فى زمنه ومابعده من أزمان ، لأن شروط القائد الناجح كانت مستوفاة فيه . . ذلك أن المطلوب من القائد - فى كل عصر وأى معترك - أن تستقيم له الخصائص التالية :

١ - أهبة الاستطلاع .

٢ - رسم الخطة .

٣ - تنظيم الجيش فى مواقعه .

٤ - تحريك القوات إلى عملياتها .

٥ - اذكاء العزيمة فى النفوس .

٦ - اضعاف معنويات العدو .

وهى صفوة صفات القيادة التى امتاز بها خالد بن الوليد مثلما اشتهرت عن كبار القادة فى جميع العصور.

* * *

وانتقل خالد من قتال الفرس إلى قتال الروم .

وقد حقق رأى الخليفة الصديق حيث قال :

« لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وقد خرج خالد على رأس عشرة آلاف محارب فقطع بادية العراق – وهى مفازه لايصاب فيها ماء ، مع مضلّتها – فاجتازها فى ثمانية عشر يوما ، وكان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد .

اختار خالد فى مسيرته أطول الطرق وأشدها صعوبة . وأبعدها عن توقعات العدو حتّى يستخدم عنصر « المفاجأة » ولكى لايتعرضّ لقطاع الطرق أو المجتمعات العمرانية التى يمكن أن تتصدى له وتعطّل مسيرته .

كانت معركته الأولى فى « أجنادين » ثم معركته الكبرى فى « اليرموك » وهى من أشهر وأحسم معارك الحرب قاطبة .

ولاريب أن تلك المعارك كانت بين ندين جد مختلفين . ففى جانب كان أبناء البادية ببساطتهم وشجاعتهم يطلبون النصر أو الشهادة ، وفى الجانب الآخر جنود القياصرة بأسلحتهم ومعداتهم المتفوقة وكثرتهم الفائقة .

وقال خالد يوم اليرموك :

« هذا يوم من أيام الله ، لاينبغى فيه الفخر ولا البغى .

فأخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم .

فإن هذا اليوم له مابعده » .

وهزمت الروم .

وبلغ خالد فى معركة اليرموك قمة القيادة العليا التى لامرتقى بعدها لغيره : قمع فتنة الردة ، وهزم دولة الأكاسرة ، وسحق قوة الروم ، واقترن اسمه بدور

تاريخى يضعه فى مصاف عظماء القادة فى جميع الأزمان.

وهو قائد لم تعزه قط صفة من صفات القائد العظيم المفطور على النضال ، وهى الشجاعة والنشاط والتحمل وحضور البديهة واليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير.

وقد نفذّ خالد أصول الحرب قبل أن يعرفها القادة الكبار فى عهود المدينة الحديثة . . فإذا ماذكرت أسماء الاسكندر ، وهانيبال ، وقيصر ، ونابليون . . فارجعوا إلى تاريخ العرب واذكروا مع هؤلاء أو قبل هؤلاء . . خالد بن الوليد .

* * *



مهاتما غاندى

١٨٦٩ - ١٩٤٨

هل تصدق الاجيال القادمة أن غاندى
كان من لحم وعظم وأنه كان يمشى بقدميه
على الأرض ؟

اينشتين

لعل الصورة التى انطبعت فى اذهان الكثيرين عن غاندى زعيم الهند ومحررها هى صورة رجل عجوز يستّر جسده الواهى غطاء بسيط ، وقد أمسك بيده مغزلا ومضى مستندا على عصاه ليواجه الأمبراطورية البريطانية فى أعز معاقلها ويقول للأنجليز : أخرجوا من بلادنا .

فكيف نحدث الشباب عن صاحب هذه الصورة ونقدمه اليهم كمثل أعلى للشباب ؟

ترى . . هل كان غاندى عجوزا هكذا دائما ، وبلا شباب ؟

يقول الماريشال ويفل : ان الرجل العظيم المسن لابد أنه كان عظيما فى شبابه .

أى إنه إذا لم يكن الشاب غاندى عظيما لما وجدناه بعد سنوات الشباب بطل الهند وحامل لواء الاستقلال .

لقد كان شباب غاندى قدوة جديرة بالاقتداء ومثلا أعلى ينبغى أن يتخذه

الشباب المفكر الناهض الذى يحب وطنه ويحب الحق ويحب الحرية ويحب الإنسانية .

لم يكن غاندى غازيا ولا فاتحاً وإنما كان محرر وطنه من استعمار قوى القبضة شديد الوطأة . ولم يحارب غاندى الاستعمار بالسلاح وإنما حاربه بالمقاطعة والعصيان ، ولم ينتصر غاندى على خصومه فى ميدان القتال وإنما احرز انتصاره الكبير وهو فى أعماق السجون . . ولم يقض غاندى على انجلترا ولم يرد ذلك وإنما كان خصمه الاستعمار . . وقد استطاع أن يلقن شعبه اسمى معانى الوطنية والكرامة والتضحية وبذلك استطاع أن يقهر الاستعمار ويحرر الهند .

ذلكم هو الروح العظيم .

ان تاريخ حياة غاندى هو تاريخ تحرير الهنود واستقلال الهند .

عند مولده كانت الأمبراطورية البريطانية قد أكملت سيطرتها على الهند « لعدة قرون قادمة » !

وقبيل وفاته كانت الهند قد حصلت على استقلالها . وانتزعت من بريطانيا أكبر درة فى تاج امبراطوريتها .

كان غاندى – باعتراف مواطنيه ، وبشهادة عشرات الكتاب والسياسيين والمؤرخين العالميين – هو رجل الهند وبطل الاستقلال .

وإذا كان استقلال الهند قد حدث بمعجزة . فإن غاندى هو المعجزة ، ولعل أهم الأوصاف والألقاب التى أطلقت على غاندى أنه « أبو الهند » .

فماذا كان سلاح غاندى فى مواجهة أكبر دولة استعمارية ، تمتلك الأساطيل والجيوش والأموال والنفوذ . . حتى يضطرها صاغرة إلى الجلاء عن أكبر مستعمراتها وأشدها فقرا وتخلفا ؟ .

لم يكن لدى المهاتما سلاح على الاطلاق ! !

لكنه واجه الأمبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس ، وهو رجل نحيل عريان لايملك من متاع الدنيا سوى عصا من فروع الأشجار يتوكأ عليها ، ومغزل ينسج به قماشا يستره ، وماعز تعطيه قطرات من اللبن يقيم به جسده الواهى . .

لقد أزمعت الحكومة الأنجليزية ذات مرة اصدار قانون يسىء إلى وحدة الشعب الهندى . وكان غاندى وقتها فى غياهب السجن . . فما الذى فعله ذلك السجين المهيض الجناح ؟

بكل هدوء وبساطة وإيمان وشجاعة أعلن المهاتما غاندى : أنه سيصوم حتى الموت ! !

ثارت الجماهير فى الهند ، واهتزت مشاعر البشر فى مختلف عواصم العالم وتحركت أقلام وأصوات الثوار والأحرار فى كل وطن تصرخ فى وجه بريطانيا . . وعدلت بريطانيا العظمى عن قانونها . . وبعدها عدل غاندى عن صومه ! !

كان غاندى يسعى إلى استقلال الهند ، ولكنه لم يفكر فى تدمير بريطانيا . .

ليس لأنه لايملك الجيوش والأساطيل ولكن لأنه كان صاحب رسالة « أهمسا » : عدم العنف ، أى المقاومة السلبية .

أهمسا : هى دعوة إلى المحبة وفعل الخير حتى مع الأشرار .

هى اللاتعاون : أى معارضة الحكومة وعدم الأنصياع لنظمها وأوامرها دون التجاء إلى أى نوع من أنواع القوة .

ان غاندى يرى أن القوة الحقيقية هى قوة الحق ، وبلا عنف . . ويوصى

بعدم الاذعان للأوامر المجحفة وعدم التعاون مع الحكومة الظالمة ، والصبر على الأذى ، وتحمل المكاره ، وضبط النفس عن الهوى .

إنه كان روحا عظيما . .

بيد أنه كان أيضا مهندسا وبناء من مهندسي الاستقلال وبناة الشعوب .

ولم يكن غاندى مجرد داعية أو زعيم روحى يقدم لبنى وطنه الصلوات والشعارات ولم تكن كل رسالته مقاومة الاحتلال البريطانى وازاحته عن بلاده . .

لكن غاندى كان زعيما فى بلد فقير متخلف ، وقائدا لشعب كثير الأديان ، متعدد الطوائف ، مختلف العادات ، فلم يفته – وهو فى نضاله السياسى ضد بريطانيا – أنه يناضل أيضا من أجل وحدة الشعب ، وتنظيم البلاد ، وتصحيح أوضاع المجتمع ومعالجة تعدد المشاكل والقضايا الداخلية وإعداد الأمة لمرحلة مابعد الاستقلال . . حتّى تنشأ فوق شبه القارة الهندية دولة جديدة قادرة على صون وحدتّها وحماية استقلالها وتدعيم أدواتّها وأخذ طريقها إلى الرفعة والتقدم والمساهمة فى المجتمع الدولى بصدق وشرف وكفاية . .

لقد كان على غاندى أن يفعل ذلك كله ، وأن يحمل من الأعباء ماهو فوق طاقة أى بشر .

لذلك لما جاءت بشرى الاستقلال جاءه بعدها على الفور نذير الشر .

كان الاستقلال حقيقة كبرى . . ولكن كان انفصال باكستان عن الهند حقيقة أخرى رهيبة ! !

كانت الهند ، وشعوب العالم كله تبارك الاستقلال ، وغاندى – فى عيد ميلاده الأخير – يبكى نذير الانفصال .

وذهب بجسده المهيض تحمله قدمان ذابلتان يذرع أرض البنجال محذرا من كارثة التقسيم .

واتجه إلى السماء وراح يصلى كل يوم فى ساحة واسعة وحوله ألوف المصليين فى العراء . .

وكانت الخاتمة عجيبة لتلك الحياة العجيبة . .

لقد أطلق شاب هندى النار على « أبو الهند » فقتله قبل أن ينبس ببنت شفة . .

وقال اينشتين :

هل تصدق الأجيال القادمة أن غاندى كان من لحم وعظم . . وأنه كان يمشى بقدميه على الأرض ! ؟ .

الشرق شرق والغرب غرب

فى سن السابعة دخل مهندس كارامشاند غاندى مدرسة المدينة – بوريباندار – فلم تعجبه الدروس ولامجتمع المدرسة ، وتدرج مع أقرانه فى متعدد فصول المراحل المتتالية حتى أتم التعليم العام وهو فى سن الثامنة عشرة .

لكنه كان قد تزوج فى مرحلة التلمذة – وهو ابن الثالثة عشرة – من طفلة فى مثل سنه تدعى كاستربای – كما هى العادة فى ذلك الوقت ، بل إنه فى يوم زواجه تزوج أيضا عدد من أطفال الأسرة ! !

كان هذا الزواج يعنى : زينة وموسيقى وملابس زاهية . . ولعب أطفال ! !

وهكذا بدأ غاندى حياته يزدرد الألم ويضرس من حصرم المجتمع .

ولذا فقد كان فى مقدمة ما دعى إليه وعنى به إصلاح نظم التعليم ومنع الزواج المبكر .

وإذا كان غاندى قد كره الزواج ، فإنه أحب التعليم .

واستقر الرأى على إتمام دراسته فى انجلترا .

لكن والدته عارضت فى سفره ، ثم رضخت أمام اصراره ، وبعد أن أخذت عليه عهدا ألا يذوق الخمر أو اللحم أو النساء ! !

كذلك عارضت طائفته أن يركب المحيط المملوء بالأشباح والشياطين ، وهددوا بعزله من طائفتهم إذا هو أصر على مخالفة عقائدهم . .

وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٨ وصل الفتى الهندى الناحل إلى لندن لدراسة القانون ، ولكنه كان مشغوف القلب بأهله حائر النظر فيما حوله ، وشتان بين المجتمعين ! . . « لقد كنت أفكر باستمرار فى أهلى ووطنى . . وكان كل شىء حولى جديرا ومثيرا . . الأهالى عاداتهم وطرائقهم فى الحياة . . لقد كنت حدثا أمام « الاتيكيت » الأنجليزى فكنت آخذ حذرى باستمرار وكان طعم الأكل غريبا أو كان الأكل بلا مذاق » .

وكان غاندى قد أعطى والدته فيما أعطى من عهود ألا يذوق اللحم لهذا كان سعيدا عندما وجد كتابا عن النباتيين فى إحدى مكتبات لندن . . وصار نباتيا بمحض اختياره بعد أن كان نباتيا بمقتضى العهد . .

وفى بدء ممارسته الحياة فى المجتمع اللندنى ذهب غاندى إلى تقليد « الجنتلمان الأنجليزى » فارتدى الملابس « المودة » ، ووضع على رأسه قبعة حريرية كان ثمنها ١٩ شلنا ، واشترى ثوب سهرة من صنع « بوندستريت » كلفه عشرة جنيهات

استرلينية وساعة فاخرة لها سلسلة مزدوجة من ذهب !

ولم يكتف غاندى بدراسة القانون وإنما كان أيضا يدرس المجتمع .

وفتح نافذة جديدة تدعى المكتبة وانكب على كتب العلماء والفلاسفة : جوته وكارليل وتولستوى وراسكين ، وقرأ التوراة وتعمق الفصل الذى أبدعه توماس كارليل عن البطل محمد ﷺ فى كتابه « الأبطال والبطولة » .

كان غاندى يزود عقله بالعلم ويغذى نفسه بالحكمة والأنسانية .

وكان يقارن بين المجتمع الانجليزى والمجتمع الهندى ، فعاش بعقله فى انجلترا وبروحه فى الهند .

وراح يفكر ويحلم ، ويعيش مع الحقيقة حينا ومع الخيال أحيانا . . كان هذا الشاب الوطنى الأمين يرى الحقيقة فى خياله وان كانت تبدو بعيدة . . ونذر نفسه لله وللهند .

وجال غاندى فى طريق عودته إلى وطنه ببعض بلاد أوربا والتقى بعدد من الكتاب والمفكرين وعاد يقول :

« انى أختلف مع القول المأثور « الشرق شرق والغرب غرب » . . وفى ظنى أن الفاصل وهمى وأن اللقاء مستطاع . . إنه عالم واحد »

هكذا قال الفتى الهندى ابن الواحد والعشرين من العمر . .

وعاد غاندى إلى الهند ، وكانت المفاجآت تنتظره فى راجكوت . .

وجد له ابنا عمره ثلاث سنوات !

ولم يجد أمه . . فقد أخفوا عنه خبر وفاتها حتى لايصدم وهو فى الغربة .

ولم يجد عملا يناسبه فى بلده فرحل إلى بومباى وأمضى عدة أشهر . .

وعاد خالى الوفاض ، لكنه تلقى عرضا من شركة « دادا عبد الله » لمهمة قانونية فى جنوب أفريقيا .

كان الواقع يشده إلى العمل فى الهند ، لكن الأمل كان يحدوه فى النزوح إلى جنوب أفريقيا ، حيث كانت جالية هندية كبيرة تعيش بين أصحاب النفوذ البيض وأصحاب الأرض السود .

وهاجر الشاب الهندى خريج جامعة لندن إلى جنوب أفريقيا .

وفى أول ليلة فى مهجره تلقى لطمة عنيفة . .

فقد جرّوه جرا من عربة قطار الدرجة الأولى لأنه كان فيها « سيد أبيض » وأودعوه ركنا مظلما رطبا ، وأحس بالرعدة تسرى فى بدنه والأسى يمزق نفسه ، وأدرك مايلاقيه الهنود من عنت ومذلة فى أرض الوطن . . وفى المهجر !

وراح يفكر : هل أكافح لأبلغ حقى . . أو أعود إلى بلدى ؟ ؟

وكانت الأجابة من أعماقه .

« إنه لمن ضعف النفس أن أكر راجعا . . سوف أستمر ، وأحقق آمالى .

وأكمل رحلته فى القطار من شارلستون إلى جوهانسبرج وكان مقعده هذه المرة إلى جوار سائق القاطرة ، وفى الطريق آراد السائق أن يأخذ راحة ويدخن غليونه فأمر غاندى بترك مقعده والجلوس بعيدا . . على الأرض ، ورفض غاندى فأمسك السائق الشرس بتلابيبه وحاول أن يلقيه من القطار لولا مقاومة غاندى واستمساكه بالأعمدة الحديدية ، وتصادف ظهور بعض الرجال فأنقذوا حياته التى كاد يضيعها لتمسكه بحقه .

وإذا كانت وظيفة غاندى فى مهجره وظيفة قانونية فإنه كان يعكف على دراسة أحوال مواطنيه ، ودعى إلى إجتماع يلم شمل الجالية الهندية فى بريتوريا

والتي تتكون غالبيتها من التجار المسلمين . . وكان هذا أول إجتماع من نوعه يتم هناك وقد تحدث غاندى وناشد أبناء وطنه أن يكونوا صادقين مخلصين فى أعمالهم وأن يذكروا واجبهم ومسئوليتهم نحو وطنهم الذى يمثلونه فى الغربة وناشدهم نسيان الفرقة والخلافات الدينية والطائفية والعادات المرذولة ، واقترح إنشاء اتحاد ينظر فى مصالح الهنود وتحسين أحوالهم ووعد بأن يضع جهده ووقته الحالى فى خدمتهم .

كان موقف الجالية الهندية فى « ترنسفال » مهينا إذ كانوا يدفعون ضريبة باهظة ولايسمح لهم باقتناء الأراضى إلا فى أطراف جرداء منعزلة وليس لهم حق الأنتخاب ولا المشى على أرصفة الشوارع ، وغير مصرح لهم بالبقاء خارج دورهم بعد التاسعة مساء إلا بتصريح خاص .

وقد وقع لغاندى حادث فى الطريق ، برغم أنه كان يحمل تصريحا بالتجول فى أى وقت ، إذ هجم عليه جندى الشرطة وجره من الرصيف إلى عرض الشارع ، وقد شهد الواقعة أحد الأنجليز المعروفين واقترح على غاندى أن يذهب إلى قسم الشرطة لمعاقبة هذا الرجل المتهور الذى لايدقق فى عمله ولكن غاندى اعتذر عن الشكوى . . وكانت نفسه تحدثه بالترفع عن هفوات الآخرين ومثارات الحدة والانتقام .

وبدأت أخلاقه تطبع تصرفاته فى العمل .

فمثلا قر فى ذهنه أن الحقيقة ثلاثة أرباع القانون .

وأن الصلح بين المتخاصمين خير من المثول أمام القضاء .

وهكذا استطاع غاندى أن يؤدى المهمة التى غادر من أجلها وطنه وجاء إلى بريتوريا ، وأنهى القضية صلحا بين موكليه وخصومهم .

وعندما أزمع العودة اضطر إلى التوقف فى اللحظة الأخيرة – فى الحفلة التى أقيمت لتوديعه – فقد جاءت الأنباء ساعتها بأن حكومة ناتال تعتزم إصدار إعلان يحرم على الهنود الترشيح والأنتخاب . .

قال غاندى : هذا هو أول مسمار فى نعشنا .

وناشد مواطنيه أن يقاوموا الحكومة وأن يحولوا دون صدور القرار غير أنهم أعربوا له عن عجزهم مالم يكن هو بينهم ورجوه أن يؤجل رحيله شهرا آخر .

ووافق غاندى ، ولم يكن ساعتها يدرى أن ذلك الشهر سيمتد عشرين سنة !

وبدأت مرحلة نضال حافلة . وضع غاندى صيغة احتجاج يرفع إلى الجمعية الوطنية وأخذ الهنود يفدون من كل صوب وحدب آناء الليل لتوقيع عرائض احتجاج مماثلة ونشرت الصحف أخبار الاحتجاج ، ومع ذلك أصدرت الحكومة اعلانها . .

. . ومن غير ارتياع ولا تردد تابع غاندى حركته وحصل على توقيعات عشرة آلاف مواطن وطبع ووزع عدة آلاف من عرائض الاحتجاج وأيدت جريدة التايمز موقف الهنود وذاع الخبر فى الهند وعرفت الجماهير مايعانيه أبناء جلدتهم فى جنوب أفريقيا .

واشتغل غاندى محاميا أمام المحكمة العليا فى ناتال ليكسب رزقه ومضى على طريق النضال لخدمة مواطنيه وبعد ثلاث سنوات استطاع أن يحصل على أجازة للسفر إلى الهند ثم العودة بعدها بعائلته .

وفى خلال اجازته فى الهند أخذ يزور المدن ويخالط المجتمعات ويتحدث ويوضح وينشر فى الصحف ويقابل العلماء والمفكرين والكتاب فى بلده ،

وعقد اجتماعا كبيرا فى بومباى . . وفجأة قطع اجازته حيث تلقى برقية تدعوه إلى العودة على الفور ، فعاد ومعه زوجته وأولاده فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩٦ .

وعند وصوله إلى « دوريان » كانت فى انتظاره مؤامرة فقد هاجمته عصابة من الأوربيين المستوطنين – الذين هالهم نشاطه وتحديه سلطاتهم – وانهالوا عليه ضربا وركلا حتى أوشكوا أن يقتلوه لولا أن سيدة انجليزية شجاعة تدخلت وأبعدت عنه المتآمرين .

وقد ذاع خبر هذا الأعتداء المؤسف ونشرته بعض الصحف وتدخل وزير المستعمرات وأبرق بطلب القبض على المعتدين ، لكن غاندى رفض مقاضاتهم وقال أنهم لايعرفون الحقيقة ، ولو عرفوها وأدركوا خطأهم فسوف يتألمون كثيرا .

هكذا قال المهاتما . .

حرب البوير :

فى سنة ١٨٩٩ نشبت حرب البوير ، وكانت مشاعر غاندى مع البوير الذين كانوا يحاربون من أجل حريتهم ، ومع ذلك دعى الجالية الهندية إلى الوقوف والتعاون مع الأنجليز ، وقام بتنظيم وتدريب لواء هندى قوامه ١١٠٠ رجل قاموا بالأعمال التى عهد بها إليهم بجد واخلاص . . وللمرة الأولى يجد غاندى جماعة كبيرة من الهنود – من جميع الطوائف والمستويات – تقف صفا واحدا فى مواجهة الخطر ويؤدون عملهم بإخلاص مترفعين عن عوامل الفرقة والخلاف . .

كان غاندى يأمل فى تقدير انجلترا لموقف الهنود فى ساعات الشدة والخطر .

وفى سنة ١٩٠١ – بعد انتهاء حرب البوير – عاد غاندى إلى الهند ، ووافق وصوله انعقاد المجلس الوطنى الهندى فى كلكتا وقد لاحظ أن السياسيين الهنود

يتكلمون كثيرا ولايعملون شيئا ، وأنهم يستخدمون اللغة الأنجليزية فى مناقشتهم .

كان غاندى لايعمل بالسياسة وحدها ، وإنما كان معنيا بعلاج المشاكل المدنية ومواجهة الأمراض الإجتماعية . . وعندما اجتاح الطاعون بعض المدن كان غاندى يهرع إلى مواقع الأصابات ويدعو إلى مقاومة المرض وانقاذ المصابين .

ولاحظ أن عربات الدرجة الثانية بالسكة الحديدية فى حالة قذارة شديدة دون – غيرها بسبب أهمال العاملين فيها – من ناحية – ولسوء تصرفات الركاب أيضا فكان يناشد الشبان المتعلمين أن يستخدموا الدرجة الثالثة وأن ينبهوا مواطنيهم إلى أهمية النظافة ، وإلى ضرورة القيام بواجباتهم إذا ماأرادوا الحصول على حقوقهم .

وقد سئل غاندى : لماذا تركب الدرجة الثالثة ؟

فأجاب : لأنه لاتوجد درجة رابعة !

فلتفعل القوة ماتشاء

تسلم غاندى برقية من ناتال تدعوه إلى الحضور على الفور ، وكان قد وعد مواطنيه هناك بالاستجابة إلى دعوتهم إذا ماastدعى الأمر ، فترك أسرته فى الهند وأبحر إلى جنوب أفريقيا ، وكانت المهمة الموكولة إليه فى هذه المرة أن يتقدم بعرض القضية على جوزيف تشمبرلن وزير المستعمرات الذى كان يقوم بزيارة للمنطقة . .

لكن الوزير البريطانى كان قد تلقى ٣٥ مليون جنيه استرلينى منحة من البيض

فلم يلتفت إلى طلبات الهنود .

وقرر غاندى البقاء لمناهضة السيطرة الانجليزية ودفع الظلم عن أبناء جلدته واتخذ له خطة جديدة على تاريخ حركات النضال المألوفة . . كان غاندى يناضل بلا حقد ، حتى إنه لايتوانى عن نجدة خصمه إذا وقع فى شرك .

كان يجمع فى آن واحد : مناضلة المعتدين . . بدون كراهية لهم !

بل إنه رأى الهند محمية تابعة للأمبراطورية البريطانية يجب أن يقف الهنود إلى جانبها ، وبخاصة فى أثناء الأزمات . . وبناء على ذلك طلب من الهنود أن يعاونوا بريطانيا فى حربها ضد البوير ، ثم فى حربها ضد الزولو . . بيد أنه كان – مع لواء الإنقاذ الذى يتولى قيادته – يسرع إلى إنقاذ المصابين من المعسكرين !

إنه نذر نفسه لله وللإنسانية . .

فلتفعل القوة الغاشمة ماتشاء ، وعلينا أن نتحمل .

وراح يفتن فى خطته الجديدة : العصيان المدنى . . المقاومة السلبية . . ثم أطلق شعاراً جديداً : « ستاياجراها » . . أى : الثبات على الحق .

. . وأصدرت حكومة ترنسفال قرارا بأن يسجل الهنود « صحيفة سوابق » تؤخذ عليها بصماتهم – كما هو الحال مع المجرمين – فعارض غاندى وحث الهنود على عدم الأنصياع . . وكان رد الحكومة الحكم بسجنه هو وعدد من مؤيديه . .

وفى سجنه تلقى من الجنرال سمطس وعدا بالغاء هذا القرار إذا ماتوجه الهنود من تلقاء أنفسهم لإجراء التسجيل ، ووافق غاندى . . كأنما كان يثق بعدوه لكن سمطس لم ينفذ وعده !

وعاد غاندى إلى دعوة العصيان وامتلأت السجون بمئات الهنود وفى

مقدمتهم غاندى طبعا ، وكأنما كان يألف السجن ، إذ كان يكثر فيه من الصلاة والقراءة والتفكير فى شئون بلده وبنى أمته . .

ثم دخلت المرأة الهندية حومة النضال .

ذلك أن المحكمة العليا أصدرت حكما بعدم شرعية الزواج إلا إذا كان زواجا « مسيحيا » ، ومعنى ذلك أن كل زواج آخر صار باطلا وكل زوجة أصبحت طالقا . . وفى مقدمتهن كاستر باى ، زوجة غاندى !

وكان غير مصرح للهنود بعبور الحدود من ترنسفال إلى ناتال أو بالعكس ، ولكن النساء عبرن الحدود بلا تصريح وحرضن عمال المناجم على الإضراب ، ونجحت مهمتهن ، ولكن الحكومة أودعتهن السجون .

وتحركت جموع الهنود وقد احتدمت ثائرتهم ، وقرروا المسير إلى حدود ترنسفال معلنين العصيان ، وقبضت السلطات على غاندى ، ولكن الحركة انتشرت وعمت البلاد وأضرب خمسون ألفا وقبض على عدة آلاف وأودعوا السجن ، وأطلقت النيران وأزهقت الأرواح . .

وأخيرا اضطر الجنرال سمطس إلى تعديل قرار حكومته الباغية أمام المقاومة السلمية وتم عقد اتفاق يجعل للهنود الحقوق التى ثاروا من أجلها .

وفى تلك المناسبة أهدى المهاتما إلى الجنرال زوجا من الصنادل صنعها بيده فى فترة سجنه !

اليوم الأسود فى تاريخ بريطانيا

ذهب غاندى إلى جنوب إفريقيا فى شهر إبريل سنة ١٨٩٣ شابا يسعى إلى عمل وعاد إلى الهند فى يناير سنة ١٩١٥ « مهاتما » يروم خدمة أمته .

وأصبح – كما وصفه الشاعر طاغور – « روحا عظيما فى اسمال طالب إحسان » إن غاندى رمز كفاح الهند ووسيلته العصيان والإضراب وإعلان الحداد العام واغلاق المتاجر ووقف الاعمال .

وعم الإضراب الهند كلها ، يستوى فى ذلك المسلمون والهندوس . . كانوا يشكلون وحدة صلبة ، ولما أراد غاندى دخول البنجاب منعه الإنجليز وسجنوه ، وهاجت الجماهير معلنة احتجاجها وحدثت عدة مصادمات دامية . . لكن غاندى عندما علم بمصرع ضابط بوليس استنكر العدوان وقرر الصيام ثلاثة أيام حتى يمتنع استخدام العنف .

وفى « أحمد أباد » حدثت مذبحة يوم ١٣ ابريل سنة ١٩١٩ ، فقد أطلقت السلطات البريطانية الرصاص على الجماهير العزلاء فسقط ١٢٠٠ قتيلاً و ٣٦٠٠ جريحاً .

وبعدها صدر قانون فى البنجال يمنع التجمهر ويهدد بضرب المتظاهرين والقبض عليهم مع عدم السماح للهنود بعبور الشوارع إلا زحفا على أرجلهم وأقدامهم ! ؟

لذلك أطلق على ذلك اليوم « اليوم الأسود فى حكم بريطانيا » لكنه كان من وجهة نظر أخرى يوم التحول فى تاريخ نضال الهند ، وتلقت بريطانيا ازدراء الرأى العام العالمى واصرار الهنود على استمرار المقاومة .

وأصبح غاندى من يومها صاحب الدور على مسرح كفاح الهند ضد الأمبريالية البريطانية . . حتى المشهد الأخير : الاستقلال .

وفى المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى دلهى فى أواخر سنة ١٩١٩ أعلن غاندى : عدم التعاون مع الحكومة البريطانية . . وكأنه قال كلمة السر أو أعطى

إشارة الساحر . . فقد ألهب مشاعر كل هندى وفتح أبواب الثورة :

« إننى لاأستطيع أن أدين بالاحترام أو التقدير لحكومة تقترف جريرة بعد جريرة لكى تستر رذائلها » .

وأخذ الهنود يعيدون إلى الحكومة البريطانية أوسمتها وشهادتها ، وترك المحامون مكاتبهم والطلبة معاهدهم ليجوبوا الريف ويشحذوا معارف الفلاحين إلى عدم التعاون ويبثوا روح المقاومة والشجاعة والتضحية . . وتحركت النساء فى مظاهرات ضخمة ، واشتعلت النار الرمزية وكأنما تصاعد دخانها فرآه جميع الهنود بشيرا بالخلاص فى أفق بلادهم .

ومثل غاندى أمام قاضيه الإنجليزى ، وقال ببساطة ورقة :

« ليس فى نفسى أى حقد شخصى على أى مسئول رسمى ، حتى الملك نفسه ولكنى لا أرتضى حكومة تتآمر على أمتى وتذيقها ويلات الظلم والهوان . ليس أمامك أيها القاضى سوى أحد أمرين : أما أن تتخلى عن وظيفتك فتنجو بنفسك من الإثم والضلال وتحكم بأننى غير مذنب . . وأما أنك موافق على الأنظمة والأحكام الجارية فتحكم علىّ بأشد عقوبة . .

وأصدر القاضى الإنجليزى حكمه بسجن غاندى ٦ سنوات ، وقال فى ختام حيثياته : « وإذا هدأت الخواطر ، وقدرت الحكومة على تخفيض العقوبة عنك أو إلغائها ، فلن يكون هنا من هو أسعد منى » ! !

وكان السجن عند غاندى يعنى : مزيدا من الصلاة والدراسة . . والغزل .

وفى السنوات الخمس التالية كان شغله الشاغل ضرورة استمرار الوحدة بين الهندوس والمسلمين ودعمها ، وكان يرى أن الهند ليست بحاجة إلى الحرية السياسية فحسب ولكن حاجتها أشد إلى الحرية الإجتماعية والحرية الاقتصادية .

وفى يوم ١٢ مارس سنة ١٩٣٠ مشى غاندى ، وقد ناف على السبعين ، على ساقين هزيلتين وفى معيته ٨٧ من خلصائه رجالا ونساء ، بادئا مسيرة ٢٤ يوما على شاطىء البحر احتجاجا وكسرا لقانون « الملح » الذى كان يحظر على المواطن الهندى الفقير أن يأخذ حاجته من الملح .

وفى يوم ٦ أبريل – بعد أداء الصلاة – دلف غاندى إلى الشاطىء وأخذ فى يده حفنة من الملح مما تدفعه الأمواج ، ايذانا بعدم الرضوخ للأحكام الانجليزية الجائرة .

وبهذه الحركة البسيطة تحركت الجموع وتتابعت المسيرات على الشاطىء وامتدت آلاف الأيدى تأخذ للملح وتكسر القانون . .

وأجابت السلطات البريطانية بنقل مائة ألف رجل وأمرأة إلى خلف قضبان المعتقلات والسجون خلال عدة أسابيع .

ولكن حكومة العمال واجهت معارضة صاخبة واضطر « رامساى ماكدونالد » رئيس الوزراء البريطانية أن يعد فى مجلس العموم بأن يغير الموقف ويحقق تحسنا فى العلاقات خلال مؤتمر المائدة المستديرة القادم ، وصدر الأمر بالإفراج عن غاندى وكثيرين من زعماء الكونجرس الهندى المعتقلين .

وجرت مباحثات غاندى – أروين فى شهر أغسطس واستطاع الرجل النحيل العارى أن يجلس ويتباحث ندا لند مع نائب الملك الإمبراطور ثم أبحر بعدها إلى انجلترا ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة .

وفى هذه المناسبة أذكر أن غاندى مر بمصر فى طريقه إلى المؤتمر واستقبله الشعب المصرى فى السويس بالترحيب والهتاف ، وكان الزعيم الهندى من المعجبين بنهضة مصر وثورة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول ، وقال إنه كان يترسم

خطواتها ويؤيد كفاح شعبها من أجل الحرية والاستقلال .

وقد حيا شوقى – أمير الشعراء – الزعيم غاندى فى تلك المناسبة بقصيدة رقيقة جاء فيها :

بنى مصر ارفعوا الغارَ وحيّوا بطل الهند
أخوكم فى المقاساة وعرك الموقف النكد
نبىٌّ مثل كونفوشيو س ، أو من ذلك العهد
قريب القول والفعل من المنتظر المهدى
شبيه الرسل فى الذود عن الحوض وفى الزهد
سلام النيل ياغندى وهذا الزهر من عندى
سلام حالب الشاة سلام غازل البرد
ومن صدّ عن الملح ولم يقبل على الشهد
ومن يركب ساقية من الهند إلى السند
سلام كلما صليـ ـت عريانا وفى اللبد
وفى زاوية السجن وفى سلسلة القيد
من المائدة الخضرا ء خذ حذرك ياغندى
ولاحظ ورق « السير » وما فى ورق « اللورد »
وقل هاتوا أفاعيكم أتى الحاوى من الهند !

صدق شوقى وصح تخمينه . كان غاندى يأخذ حذره فعلا بل إنه كان يقدر سلفا أنه سيعود خالى الوفاض . . غير أن رحلته حققت نتائج طيبة ، إذ سلطت على رحلته كاميرات وأقلام الأعلام ، وظهرت للشعب الانجليزى وللعالم صورته

الحقيقية وحق بلده فى الحياة والحرية . . ورأوا الرجل النحيل العارى أقوى وأشجع وأنظف خصم لبريطانيا العظمى .

بعد غيبة ثلاثة أشهر فى انجلترا ثم سويسرا عاد غاندى إلى الهند ، ووجد أن الاتفاق الذى أبرمه مع إروين نائب الملك « السابق » قد ألغاه نائب الملك « اللاحق » وأن الهند عادت تحكم بيد من حديد تتمثل فى الأوامر التحكمية وإطلاق النار على الجموع والسجن بالجملة . . حتى جواهر لال نهرو كان فى طريقه لاستقبال الزعيم العائد فقبضوا عليه وأودعوه السجن .

وقال غاندى : لعلها هدايا الكريسماس يقدمها لنا نائب الملك . . فقد كان الوقت أواخر ديسمبر سنة ١٩٣١ .

وبعدها أودع غاندى السجن .

ولكنه هذه المرة لم يكن كعادته يشعر بالطمأنينة فى القفص ! لقد بات مشغولا بخاطر رهيب أطار النوم من جفنيه الذابلين ، وبعث الخوف العميق فى نفسه الطاهرة . ان الحكومة البريطانية قررت أن تضمن دستور الهند الجديد فقرة تكلف الهند وحدتها ، وتمزقها شيعا بين مسلمين وهندوس ومنبوذين . . وتثير نار الفرقة الشعواء .

كان هذا يعنى القضاء على وحدة الهند وتمزيق الأمة .

فماذا يفعل الروح العظيم أمام هذه النكبة الواقعة .

لقد أبرق إلى رامساى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا بقراره :

« سأصوم حتى الموت . . »

وقامت القيامة فى الهند . .

وبعث إليه الشاعر الخالد طاغور : « أى تضحية عظمى لحياة غالية من

أجل وحدة الهند واجتماع شعبها . . اننا بقلوبنا الكسيرة نتابع حزنك النبيل بالاحترام والحب . . » .

. . . كانت كلمات طاغور تعبر عن مشاعر الأمة التى انتفضت وانطلقت فى الشوارع . وعدلت بريطانيا عن قرارها مرغمة ، وعدل غاندى عن صومه هادئا . .

اخرجوا من الهند

شب أوار الحرب العالمية الثانية . .

كان غاندى يكره النازية ، وكانت مشاعره مع الحلفاء . .

وكان رأيه أن الحرب خطأ فادح . . أية حرب !

وكان يعجب كيف تحارب انجلترا من أجل الحرية وتطلب تأييد الهند ومساعدتها . . ثم تأبى على الهند الحرية ! ؟

ورفض غاندى وجهة النظر القائلة أن هذه هى فرصة الهند للانتقام من بريطانيا وهى متعثرة فى وحل الحرب . . وقال :

« نحن لانريد أن نحصل على استقلال بدمار بريطانيا » !

ثم وقع حادث غريب أزاح اللثام عن حقيقة نوايا بريطانيا . . فقد تقدمت القوات اليابانية نحو الحدود الهندية حتى بلغتها دون أن تحرك بريطانيا ساكنا . . فلا هى قادرة أو راغبة فى منع الخطر عن الهند ولاهى راضية أن تعطى الهند حق الدفاع عن حياضها .

وهنا أرسلها غاندى عالية مدوية :

« أخرجوا من الهند » .

وأوضح : إننا لانعادى الشعب البريطانى ولكننا نعادى الامبريالية .

إن القول بضرورة سحب القوات البريطانية من الهند وانهاء الاحتلال لايصدر بدافع الغضب والعداء ولكنه جاء من حق الهند الطبيعى فى الدفاع عن نفسها فى هذه الأيام الطافحة بالأخطار .

وفى باكورة صباح ٩ أغسطس تمّ القبض على غاندى وعدد من زعماء المؤتمر فانفجر الهيجان فى جميع أنحاء الهند وحدثت اضطرابات ومصادمات قابلتّها السلطة بقوة السلاح . وأصبحت الهند تحت الاحتلال العسكرى المسلح تماما !

وقد أودع غاندى قصر « أغاخان » قرب « بونا » وعدته الحكومة الانجليزية رأس المسئولية عن الهياج فى الهند ولكنه راح يتبادل الرسائل مع الحكومة وأعلن الصيام ٢١ يوما ابتداء من ١٠ فبراير ١٩٤٣ .

وفى أثناء سجنه مات سكرتيره ورفيق نضاله خلال ربع قرن « ماهادى ديزيا » وماتت زوجة غاندى «كاستربای» ، وهاجت الجماهير وماجت وهددت وأفزعت ، وثار الرأى العام العالمى حتّى اضطرت السلطات إلى اخلاء سبيله ، فخرج مريضا واهيا حتّى إنه كان يمتنع عن الكلام كل عدة أيام لكن روحه بقيت قوية . وسواء كان المهاتما صحيحا أم عليلا فإنه لايبعد عن قاعدة نضاله ولايكف عن التفكير والتدبير والنصح والارشاد وقد هاله أن تغذى انجلترا الخلاف الذى وضعت بذوره بين المسلمين والهندوس حتّى تجعله تكأة تحتج بها على الداعين لجلائها عن الهند . .

وازدادات الحالة سوءا وتدهورا ، فقد شاعت المجاعات وعمت الاضطرابات ، وسقطت الوزارة فى انجلترا سنة ١٩٤٥ واختط رئيس الوزراء

الجديد آتلى خطا وسطا بين سياسة الدم والحديد التى استنها تشرشل وسياسة الاستسلام التى تعنى الجلاء عن الهند . . وقرر اقامة حكومة هندية تحكم الهند .

غاندى بطل الاستقلال

أوفدت الحكومة البريطانية لجنة وزارية لتبحث مع زعماء الهنود الصورة الملائمة لمستقبل الحكم فى الهند ، كدولة متحدة مستقلة . لكن الجهود اخفقت فى الجمع بين المسلمين والهندوس ، وكانت بريطانيا وراء ذلك الخلاف المحتدم .

وفى يوم ١٢ أغسطس ١٩٤٦ دعى نائب الملك جواهر لال نهرو لتشكيل أول وزارة هندية . . ويومها أعلن محمد على جناح فى البنغال مولد دولة جديدة منفصلة عن الهند : هى باكستان .

جاء الاستقلال . . ولكن ضاعت وحدة الأمة !

وكان يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٧ يوما مشهودا وتاريخيا .

ولكن المهاتما – الروح التى تمشى على ساقين هزيلتين – كان يجوب البلاد قرية بعد قرية فى مناطق صعبة المسالك ، وهو يجتر حزنه العظيم ويناشد الجماهير مسلمين وهندوس : الايمان والأمل والمحبة . .

وفى عيد ميلاده السابع والسبعين تلقى غاندى مئات البرقيات من جميع أنحاء العالم بالتهنئة ، فكان يتمتم بصوت باك :

فيم التهانى ؟ أما كان أولى منها التعازى . ليس فى قلبى سوى جروح نازفة .

. . . إننى لاأستطيع أن أعيش على حين الخلافات تدور والمصادمات تنزف الدماء .

. . . ولم يعد غاندى قادرا على شيء . . ونذر نفسه للصوم والصلاة ،

وكان يتحرك من ساحة إلى ساحة حيث تتوافد ألوف المواطنين يؤدون معه الصلاة فى العراء .

وفى يوم ٣٠ يناير ١٩٤٨ جاءت النهاية . . إذ تقدم شاب هندى آثم معتوه وأفرغ رصاص مسدسه فى قلب المهاتما . . ومال غندى على جنبه ورقد ، ولفظ آخر أنفاسه : الله . . الله .

الذى قتل غاندى مواطن هندى !

غاندى نذر حياته للهند فانتزعها فتى هندى .

ورثا نهرو الروح العظيم قائلا فى ألم وحيرة :

. . . لقد انطفأ النور ، وصرنا فى ظلام . .

. . . ان زعيمنا المحبوب . . بابو . . أبو الأمة . . مات .

. . . لقد أخطأت عندما قلت أن النور انطفأ .

. . . ان النور الذى سطع فى أرجاء هذه البلاد نور غير عادى .

. . . هذا النور الذى أضاء على هذه الأمة خلال السنوات الماضية سيستمر مضيئا عدة أعوام أخرى . . آلاف السنين فى بلدنا ، وستراه الدنيا كلها . . وسوف يضىء أرواحا لاتعد ولاتحصى .

. . . ان هذا النور هو الحق .

. . . وهذا الرجل الخالد كان معنا رمزا للحق الخالد ، يبشرنا بالطريق إلى الحق وينأى بنا عن الخطيئة ويأخذ بيدنا إلى الحرية .

. . . مثل هذا الرجل لايموت !

إنه كان هدية للإنسانية ، لاتقدر بثمن .

* * *

نماذج من الأمريكتين

- سيمون بوليفار
- جورج واشنطون



سيمون بوليقار

١٧٨٣ - ١٨٣٠

محرر أمريكا اللاتينية

● المجد أن تكون عظيماً ومفيداً

سيمون بوليفار

فى شهر يناير ١٩٧٩ اقيم احتفال باهر لازاحة الستار عن أول تمثال يقام فى مصر لاحد الأجانب ، سيمون بوليفار ، فى وسط ميدان يحمل اسمه ، على امتداد شارع امريكا اللاتينية فى حى جاردن سيتى ، وهو من أجمل وأرقى احياء القاهرة واحفلها بالسفارات الأجنبية .

وقد حضر حفل ازاحة الستار عن تمثال بطل فنزويلا ومحرر أمريكا اللاتينية السيدة الأولى قرينة رئيس جمهورية فنزويلا ، والسيد ساليدو باسترادو وزير الثقافة الفنزويلى الذى قال فى هذه المناسبة :

« إن الحضارة العربية تجرى فى عروقنا » .

وهكذا ، كرمت مصر ذلك النموذج الإنسانى العظيم والمثل الباهر للشباب المناضل ، سيمون بوليفار ، وقدمته فى قلب عاصمتها إلى ابنائها وإلى الجاليات العربية والأجنبية والسائحين والزائرين ليتعرفوا على ذلك الرجل الذى جاءت به

شهرته وبطولته عبر آلاف الأميال ومئات السنين كمثل أعلى للبطولة ورمز لشرف النضال وليقرأوا على قاعدة تمثاله كلمات تذكارية وعبارات مأثورة :

رمز الصداقة

جمهورية فنزويلا . . جمهورية مصر العربية

سيمون بوليفار

١٧٨٣ – ١٨٣٠

محرر

فزويلا . كولومبيا . اكوادور

بيرو . بوليفيا . بنما

« بالسلام تنعم بكل معانى الحرية والمجد والاستقلال »

بوليفار ١٨٢٠

« المجد ان تكون عظيما ومفيدا »

بوليفار ١٨٢٤

ان سيمون بوليفار اسم يثير مشاعر الشباب بالعزة والفخار والذكرى المجيدة لبطل عاش للنضال من أجل تحرير بلاده ، وهو ليس ابن موطنه فنزويلا وحسب وإنما هو ابن أمريكا اللاتينية كلها ، وسيفها الذى ارتفع فى وجه

الاستعمار وأصابه فى مقتل ولم يعد إلى قرابه حتى تحررت ست دول أمريكية .

بدأ سيمون بوليفار نضاله وهو فى ميعة الصبا ومضى إلى خاتمة حياته وهو فى اهاب الشباب . . انطلق عاليا وسريعا كالشهاب فبهر العقول وايقظ المشاعر واسمع الشعوب المستضعفة اناشيد الحرية وشهر فى وجه للمستعمر سيف الجلاء حتى اجبره ان يحمل عصاه ويرحل . .

وبعدها رحل بوليفار .

وكأنما كان سيمون بوليفار ابن مهمته ، وكأنما كانت سنوات حياته معدودة بقدر الزمن المخصص لأداء رسالته . . فما أن انتهى منها حتى انتهى من الحياة ، فلم يحصد ثمار غرسه ولم يعش فى ظلال المجد الذى طالما رنا إليه وجاهد فى سبيله .

. . بل يمكن القول أيضا بأن حياة بوليفار قد صيغت مثلما تصاغ المسرحية أو الرواية السينمائية ذات الحبك والتشويق والمواقف المثيرة المتتابعة ، وقد حفلت بامجاد البطولة وأحداث النضال . . وظاهرات العراقة والجاه . . وصور الآلام والحرمان والهجران . . واهازيج النصر وويلات الهزيمة ! ؟

وكثيرا ماتكون الحقائق أروع ممايأتى به الخيال !

إنها حياة شاب عريق الاصل واسع الثراء لم يركن إلى الرفاهية ورغد العيش وإنما اختار النضال منذ صباه وعاهد نفسه على تحرير وطنه الذى جثم عليه استعمار بغيض شديد الوطأة . . فقد والديه وهو طفل وصدم فى حبه الأول فماتت عروسه بعد سنة واحدة من زواجها . . انتصر فى معارك كثيرة صعبة ولقى كثيرا من الهزائم العسكرية والسياسية . . تكاثر عليه الاعداء ولم يترفق به الاصدقاء وضاقت به الأزمات حتى كان يضطر إلى الاختفاء والفرار والهجرة . .

ولكن ذلك كله لم يفت فى عضده ولم يحوله عن هدفه الكبير . . كان شغوفا بالحرية مشبعا بأفكار الاحرار جان جاك روسو ، منتسكيو ، فولتير ، وسيمون رود ريجث . . احب نابليون وصادقه ثم اكتشف ميوله الفردية ونزعاته الدكتاتورية عندما تخلى عن مبادىء الثورة الفرنسية وأعلن نفسه إمبراطورا . . فكرهه وازدراه ونأى عنه .

وكأنما عصر سيمون بوليفار الحياة فى زمنه واجترع كأسها دفعة واحدة ، بما فيها من روعة الحب وذل الانكسار ورحيق النصر وعظمة النضال وسوءات البشر من حقد وانانية ورياء واستخذاء . . ثم قال بوليفار ناصحا ومحذرا شباب جيله والاجيال القادمة بعده :

« البطولة ان يكون وطنك مستقلا وعزيزا »*

« والمجد أن تكون عظيما ونافعا . . »

كان بوليفار رجل حرب وحكم ، وبفضله نالت ست دول فى أمريكا اللاتينية حريتها من حكم الاستعمار الاسبانى ، وهو يعد أحد العباقرة الذين انجبتهم « امريكا الاسبانية » وكانت له شهرة ذائعة منذ مطلع شبابه إذ جال

---

* يحضرنى فى مناسبة هذا القول المأثور كلمات حكيمة للسياسى المصرى « المجاهد الكبير مكرم عبيد » :

« من كان يطلب فضلا . . فحسبه أن يكون للفضل ذكورا . . »

« ومن رام رفعة لنفسه فليرتفع بامته . . فإن له على اكتافها طريقا إلى السماكين قصيرا . . »

« ومن راح يسعى إلى سؤدد . . فما أقل من كان بغير امته كثيرا . . »

« ومن ظل يزهو بمجد شخصه . . فيالبؤس من شاد على انقاض امته قصورا . . »

« ومن لم يستمع صوت الضمير مناجيا . . فإن للحق صوتا سيسمعه الغافلون زئيرا . . »

« ومن استمرأ الظلم والغلبة لأمته ، ليكتب الظفر لشهوته . . فليرتدع ! فالظلم يقسو على المظلوم دهرا وعلى الظالمين دهورا . . » .

بفكره تحرير بلاده ، ثم تحرك بطريقة عملية لتحقيق ماأراده ولقى فى سبيل ذلك متاعب جسيمة واخطارا ماحقة وظل بين صعود وهبوط ونجاح واخفاق بلا وهن وبغير يأس . . أما بعد موته فقد ادرك الناس أن بوليفار عبقرية فذة وشخصية نادرة المثال ، وليس بين مشاهير المناضلين فى التاريخ سواء فى أوربا أو أمريكا من ظهرت عليه مخايل البطولة يافعا وشابا ، واجتمعت له أسباب القوة وانبرت له عوامل الضعف ، وغمرته عظمة الخلق وعمق الشاعرية كما كان بوليفار .

وقد جاء سيمون بوليفار من أسرة ارستقراطية ذات نفوذ وغنى يوم ٢٤ يوليو ١٧٨٣ فى كراكاس - حاضرة فنزويلا - ومات والده وهو طفل فى الثالثة من عمره وماتت أمه بعد موت أبيه بست سنوات فكفله عمه ثم انتقل بعد سنوات إلى كفالة جده « فليثيانو بلاشيو شوخو » أحد أصحاب الجاه والنفوذ فى زمنه ، وقد انعم ملك اسبانيا برتبة عسكرية شرفية على الفتى الصغير تذكارا لاسم والده الذى كان من كبار الضباط .

ومنذ صباه الباكر كان سيمون بوليفار صاحب رأى وفيه وطنية ، وبه نزعة للاستقلال فلم يتيسر لأحد اساتذته أن يؤثر عليه أو يغير وجهة نظره أو يريده على غير ماأراد ، ولكنه كان يستمع ويثق بأحد المفكرين المشهورين فى عصره سيمون رودريجز ، حوارى جان جاك روسو . . وهو الذى قدم سيمون بوليفار إلى عالم القرن الثامن عشر وقدم إليه أفكار اقطابه فتأثر بها البطل الشاب كل تأثر .

وفى سن السادسة عشرة عبر بوليفار المحيط إلى أوربا لاستكمال دراسته ، وعاش فى أسبانيا ثلاث سنوات ، وهناك تزوج من نبيلة اسبانية بعد معاناة وعاد

بها إلى وطنه ولكنها لم تعش غير سنة واحدة . . وذاق الفتى المحب كأس الضنى والفراق وجراح القلب .

وعاد سيمون بوليفار إلى أوربا ، وقد لمع نجم نابليون بونابرت وبهر الدنيا وشغل الناس ، ومن ساعتها ارتبط فكر بوليفار بالمجد والعلاء . . وقد تعرف بالعالم الألمانى الكسندر همبولت الذى بعث فى فكره تحرير امريكا اللاتينية من الحكم الاسبانى ، فاختمرت الفكرة فى ذهن بوليفار وعمق بها كيانه ووجدانه . . وعندما صعد إلى قمة جبل « افنتينو » فى روما أخذ على نفسه عهدا بتحرير وطنه .

كذلك وقع حدث كبير أثر كثيرا فى مشاعر بوليفار وأثرى فكره بحقائق السياسة والحكم ، فقد كان بوليفار يرقب بوعى متنبه ووجدان ثائر ذلك الاستعراض الكبير الذى صاحب تتويج نابليون بونابرت امبراطورا على فرنسا فى سنة ١٨٠٤ ، وكان رد الفعل شديدا على بوليفار من الاعجاب بنابليون جندى الثورة . . إلى النقمة على نابليون الإمبراطور ، وقد تنكر لمبادىء الثورة وانزلق عبر اطماعه الشخصية فلم يعد مجد فرنسا هو الغاية . . وإنما مجد نابليون الشخصى . . ومن هنا استقر فى ذهن بوليفار أن المناضل من أجل تحرير وطنه لاينبغى له أن يسعى إلى مغنم شخصى ولايطمع فى منصب أو لقب . . وهكذا اختار بوليفار لقب « المحرر » لوطنه لاملكا ولا إمبراطورا .

وفى ذلك قال بوليفار – من رسالة إلى احد قواده :

« لست نابليون . . ولا أود أن أكونه .

ولست أريد أن أحذو حذو يوليوس قيصر . .

وأولى بى أن لا أقلّد ايتور بيدى (دكتاتور المكسيك)

ولست أكتمك انى اعتبر هذه النماذج اقل مما يستحق اسمى من مجد . .

ولقد منحنى الشعب لقب « بطل التحرير » وهو أسمى لقب وارفع ممايمكن أن يصل إليه طموح إنسان . .

وليس فى نيتى ابدا أن الطخ هذا الشرف أو أحط من قيمته . . »

* * *

هكذا تكوّن فكر بوليفار واستقر رأيه على أن يناضل لتحرير وطنه من الاستعمار الاسبانى حتى يعيش حرا ومستقلا وكريما . . وما أن عاد إلى فنزويلا حتى بدأ مسيرة النضال . . وفى ذلك الوقت كان نابليون بونابرت قد أغار على شبه جزيرة ايبريا وعزل ملك اسبانيا وولى عهده وعين شقيقه جوزيف بونابرت ملكا على اسبانيا سنة ١٨٠٨ فاهتز الموقف فى المستعمرات ووجد بوليفار الفرصة السانحة فرفع علم الثورة ضد الاستعمار الاسبانى وسرعان ماانتشرت الفكرة بين الجماهير فى شتى اقطار القارة وبدأت حركة التحرير .

كان أول ماعمله سيمون بوليفار تكوين خلية ثورية ، ثم أخذ ورفاقه يقتحمون التجمعات الشعبية حيث يلقى خطبا نارية ، ثم أقدم على مواجهة حاكم المدينة – فنسنت د امباران – وأعلنه فى شجاعة مبهرة أنه أعلن الحرب على الاستعمار الإسبانى ولن يتراجع فى حربه حتى الموت .

وفى ١٩ أبريل ١٨١٠ نجحت الثورة فى اجبار الحاكم الاسبانى على التخلى عن منصبه واقصائه عن فنزويلا ، كذلك تقرر فى تلك السنة ايفاد سيمون بوليفار إلى انجلترا لكى يشرح للانجليز أهداف الثورة ويحصل على تأييدهم .

وإذاكان بوليفار لم ينجح فى مهمته الرئيسية عند زيارته لانجلترا إلا أنه جاء

بنتائج أخرى لم تكن فى باله ، فهناك عكف بوليفار على دراسة نظم الحكم فى بريطانيا - وهى تتميز بالحنكة والرسوخ - كما أنه التقى بالمناضل الفنزويلى - فرانشسكو ميراندا - الذى كان نائيا عن بلده بعد محاولة فاشلة ضد الاستعمار الاسبانى . . وقد استطاع بوليفار أن يقنع ميراندا بالعودة إلى كراكاس وان يتولى قيادة حركة التحرير.

وتأجج أوار الثورة فى فنزويلا ، واجتمع المؤتمر الوطنى فى شهر مارس ١٨١١ فى كراكاس لوضع دستور للبلاد . . وعلى الرغم من أن بوليفار لم يكن من النواب إلا أنه اقتحم الاجتماع والقى فيه شواظا من نار . . :

« هلموا بنا نضع الحجر الأساسى لتحرير فنزويلا ، بلا خوف

ولاوجل . . أما إذا ترددنا فسيكون مصيرنا الهلاك . .

التحرير . . أو الموت »

وفى يوم ٥ يوليو ١٨١١ أعلن المجلس الوطنى استقلال فنزويلا

وانخرط بوليفار فى سلك الجيش . . جيش الجمهورية الجديدة الناشئة الذى يتولى قيادته فرانشسكو ميراندا .

. . غير ان الصفو لم يتم والوئام لم يتحقق بين البطلين ! كان ميراندا يصف بوليفار بأنه شاب متهور . . وكان بوليفار يصف ميراندا بأنه قائد مخرف !

وقد انتهى شأن ميراندا على أثر القتال الذى نشب بين جيش فنزويلا والقوات الاسبانية ومنى بالهزيمة فآثر الانسحاب وانهى حياته السياسية والعسكرية . . أما بوليفار فقد أخذ سمته إلى قرطاجنة فى نيوجراندا - حاليا : جمهوريا كولومبيا - فقد كان يعتبر نفسه ابن الثورة وفتى امريكا كلها . . وهناك القى بنفسه فى تيار الثورة واستمعت إليه الجماهير وآمنت ببطولته وقيادته حين قال

لهم بوليفار :

« إننى – ابن كراكاس – التى تخلى عنها الحظ ، وقد استطعت أن أنجو من الكارثة وافر إليكم بمعجزة بعد ماحل بها من دمار سياسى ومادى . . وهأنذا بين ظهرانيكم لكى أودى واجبى تحت علم الحرية » .

وكانت اشارته إلى الدمار المادى تقصد ماحل بفنزويلا من زلزال مدمر قضى على حياة عشرة آلاف مواطن واصاب كراكاس وغيرها من المدن بخسائر فادحة . . وكان بوليفار يصعد فوق الانقاض ويخاطب الجماهير المذعورة صائحا فى حماسة ملتهبة :

« إذا كانت الطبيعة تعترض طريقنا فلسوف نكافحها حتى نحملها على الخضوع لنا والانقياد لمشيئتنا » .

كان يعرف الكلمات التى تهز مشاعر المواطنين والتعبيرات التى تحرك ساكنهم ، وعلى طريق الثورة كان بوليفار يواجه الحقائق فى صراحة بالغة ويحدث الجماهير بلغة الثورة ومنطق الأحرار . . مهما كان الموقف سيئا أو كانت الاحداث قاسية :

« ان الاسبانيين لم ينتصروا علينا وإنما نحن الذين هزمنا انفسنا . . بانقسامنا فعدنا من جديد إلى العبودية . . ولو كانت لدينا حكومة قوية لاختلف الأمر تماما » .

هكذا لخص الاحتياج الرئيسى فى : القيادة السليمة أو الحكومة القادرة .
. . واحتضنت الجماهير بوليفار وصار اسمه مبشرا لها بالحرية والنصر .
واصدر بوليفار « إعلان قرطاجنة » .
وقد برزت من بين سطور الاعلان شخصية بطل مناضل .

ولقد استجابت لدعوته جماهير « جراندا الجديدة » وأولته قيادتها العسكرية لتحرير فنزويلا ، وهكذا تولى بوليفار قيادة « الحملة العجيبة » وأعلن الشعب بشعار « الحرب حتى الموت » وأصبح لقب بوليفار : محرر القارة .

ولقد اشتبكت الحملة فى عدة معارك بالغة القسوة ضد عدو منظم كثير العدة والعدد واستطاع بوليفار أن يحرز عدة انتصارات باهرة وان يقتحم كراكاس يوم ٦ أغسطس ١٨١٣ غازيا ومحررًا لوطنه .

غير أن تلك المعارك لم تكن فاصلة لأن القوات الاسبانية كانت تقاتل ببسالة وتنتقل من موقع إلى آخر مستميتة فى معركة حياة أو موت . . ومن ناحية أخرى كانت القوات الوطنية حديثة العهد بالحرب وحيلها وماتحتاجه المعارك من صبر وتحمل وتضحية . . فضلا عن استعجالها النتائج وتبرمها بطول القتال ومايصاحبه من ضيق وحرمان وبعد عن الأهل ونأى عن مواطن التسلية والراحة ولذلك أفلت منهم الزمام فى معركة « لابورتا » ثم اندلع الخلاف فيما بينهم فانهارت أحلام بوليفار ولجأ إلى الهرب قاصداً إلى جمايكا فى شهر مايو ١٨١٥ وهناك بدأ مرحلة جديدة من مراحل نضاله المرير ، فقد كان لايعرف اليأس ولايمل من القتال . . وكان لايفرّق بين بلد وآخر وإنما يعتبر امريكا اللاتينية بلدا واحدا وشعبا واحدا ونضالا واحدا .

فى جمايكا وضع بوليفار دستور العمل والحكم لكل بلاد امريكا الجنوبية ، وقد جمع فى « ميثاق جمايكا » بين تعليمات الجندى الفذ ونظرات السياسى الاريب ولمحات المفكر الأديب والكاتب النحرير ، فقد وضع للقيادة دستورها ونظام حياتها كمجموعة دول متحدة لها جيش واحد وحكومة واحدة ومستقبل واحد .

وقد وقع حدث جديد بالغ الأثر فى أوربا وفى العالم كله إذا حلت الهزيمة بنابليون بونابرت وانتهت امبراطوريته . . وراحت اسبانيا تستعيد شأنها وتحكم القبضة على مستعمراتها وتقضى على الحركات الثورية التى اندلعت فى اقطارها .

ولكن ذلك لم يكن الأمر الذى يخيف بوليفار أو يجعله ينكص عن نضاله وإنما الذى أهمه وحز فى نفسه فهو ماحدث بين المواطنين انفسهم من خلافات ومؤامرات ومعارك داخلية شابت حركة التحرير وكادت أن تودى بها ، بل لقد تعرض بوليفار للاغتيال أكثر من مرة وكان يفلت بأعجوبة أو معجزة . . وقد اضطر لمبارحة جامايكا إلى تاهيتى وقد سبقته شهرته إليها فاستقبله أهلها وحاكمها بالترحاب وامدوه بالرجال والمعدات اللازمة لتجهيز حملة جديدة قادها إلى جزيرة « مرجريتا » فى شهر مايو ١٨١٦ ومنها اتجه إلى فنزويلا حيث استولت قواته فى الطريق على مدينة « كاروبانو » التى أصدر فيها مرسومه الشهير بتحرير العبيد وتحريم الرقيق ، وكان ذلك من مآثره الخالدة ، إذ كانت الحرية عند بوليفار لاتتجزأ وكان رأيه أن الإنسان الحر هو أساس الوطن الحر .

ومرة أخرى نجد أن بوليفار سابق لزمنه وان مراده أكبر من أن يتحمله بنو وطنه وأن تحرير الوطن ليس فى متناول العاديين الذين لايتحملون المشقة ولايصبرون على العناء والبذل والتضحية . . غير أن بوليفار قد رزق همة لاتوقفها الصعاب وعزيمة لايخامرها التردد فى أسوأ الظروف . كان لايعترف بالهزيمة ولايعرف اليأس وانما يخرج من تجربة إلى تجربة ويعيد المحاولة والكرة مهما كانت النتائج بلايأس ولاتثريب كأنما كان متفقا مع القدر على انه سيصل فى النهاية ويحقق أهدافه العظمى مهما طال الطريق واكتنفته المصاعب .

لقد رحل بوليفار هذه المرة إلى تاهيتى ليعد حملة أخرى لتحرير فنزويلا

ووجد من الرجال الذين يقودهم حماسة وشجاعة فقد كان اسمه بشيرا بالنصر ، وقد نجحت الحملة فى أول صدام لها فاقتحمت « انجستورا » التى تسمت باسمه فيما بعد « مدينة بوليفار » وفيها راح يضع نظام الحياة والحكم وينشىء دولة مؤسسات منها مجلس الحكومة ومجلس الحرب وهيئات القضاء والصحافة ، وإعداد جيش وطنى قوى ، وتنظيم ميزانية الدولة ، وتوزيع الثروة الوطنية ودعم الروح القومية ، وبناء الإنسان الجديد .

هكذا كان بوليفار رجل حرب وسياسة وحكم .

وهكذا لم تعرف روح بوليفار الهدوء أو الراحة وإنما كان يعاجل بإعداد حملات أخرى لدحر المستعمر ويمضى بين الانتصارات والهزائم حتى لحقت به هزيمة منكرة ضاعت فيها حملته أشتاتاً وفرّ هو من الأسر بمعجزة إذ رحل فى ظلمة الليل إلى انجستورا حيث بدأ فى إعداد حملة جديدة استعان فيها بالمتطوعين الذين اقبلوا عليه مبهورين باسمه مشدودين إلى بطولته وقد جاءوا من أوربا وأمريكا الشمالية يؤيدون الثائر الاعظم ويساهمون فى معارك التحرير ويستظلون باسم بوليفار .

وتلك ظاهرة مبهرة يكاد ينفرد بها بوليفار بين أبطال الحرية والمآثر التاريخية الكبرى ، وقد استطاع أن يبرز جوانب العظمة فى شخصية البطل الفنزويلى أحد معاصريه وبنى جلدته أديب اورجواى النابه وكاتب أمريكا الاسبانية خوسيه انريكى رودو فى كتابه « بوليفار » الذى قدم فيه دراسة تحليلية عن بطل تحرير أمريكا اللاتينية ، وهذه سطور مضيئة صادرة عن احساس صادق وفكر متوقد وتقدير جليل :

كانت روح بوليفار من طراز تلك الارواح التى تكمن فى قرارتها طريقة

غريبة غامضة للتفكير والعمل تخرج عن دائرة الوعى البشرى . هو من نوع أولئك الرجال الذين لايصدر سلوكهم عن تقدير محكم متزن للأمور ، وإنما عن تلك القوة الطاغية النابغة من الغريزة . . من تلك الغريزة الفطرية التى تلهم النحل كيف تبنى خلاياها بنظام لانكاد نرى نظيرا لاحكامه واتقانه مع أنه لايخضع لقوانين المنطق الإنسانى المتعارف عليها . . وهكذا نرى انتصارات بوليفار الرائعة لاتقوم على ذلك التقدير الواعى للأمور ، وإنما كان يكفيه فيها الاحساس المفاجىء الذى يشبه ومضة الوحى فى النفوس المؤمنة ثم التنفيذ السريع الذى لايتوقف امام دواعى الحذر والتلبث . . اما فى الهزيمة فنحن نراه وقد تزايدت شخصيته ضخامة وعظمة كما لم نر فى أى بطل آخر من أبطال التاريخ ، وكلما زادت فداحة الانكسار وشدته ولد ذلك فى روحه قوة جديدة قادرة على مواجهة المحنة والصمود لها . . وهو فى هذا المظهر نفسه كما هو فى وقت الانتصار لايصدر عن تجربة ووزن للاحتمالات ، وإنما تصدر أعماله عن ردود فعل فطرية مباشرة غير واعية . . وماأصدق تلك الكلمة التى قالها عنه غريمه الجنرال الإسبانى « موريو » وأجمل فيها صفات بوليفار فى وقت المحنة :

« انه أبعث للخوف والرهبة فى هزيمته منه فى انتصاره ! ؟ »

والذى يتأمل حملات بوليفار يرى إنها لم تكن ثمرة خطة منتظمة رسمت بمنهج محكم أو بتقدير يربط الاسباب بالنتائج ويزن قوته بقوى أعدائه وخصومه . . لا . . لانرى شيئا من ذلك وإنما هى هجمات هائلة تتعاقب كأنها أمواج بحر لايعرف المرء فيه أين تبدأ هذه الموجة ولا أين تنتهى تلك ، وتمضى هذه الحملات ضربة هنا وضربة هناك ، وقد تنكسر حملة ويقضى على آخرها ولكن لاتلبث أن تنطلق أخرى فى مكان لايتصوره الخصوم . . ولاتزال

الضربات تتوالى حتى تصل إلى الحد الذى لايكون بعده مجال للتراجع أو الاستسلام . . حينئذ نرى الانتصار ماثلا قويا ، بل هو يزداد قوة وتوطدا ، وينتشر من مكان إلى آخر كأنه سيل جارف ينساح على سلسلة جبال الانديز : كل جبل منها يتحول إلى معلم من معالم النصر الكبير الساحق .

لم ير أحد من أبطال التاريخ كما رأى بوليفار من تعاقب الانتصارات التى كانت تبدو حاسمة نهائية ، والهزائم التى لايشك غيره من القادة والزعماء فى انها هى القاضية التى لا مجال بعدها للنهوض من العثرة . . ومع ذلك **فلا الانتصار القى على بصره غشاوة من الغرور ، ولا الهزيمة أوهنت عزيمته أو الحقت به اليأس والاستسلام .**

فى لحظة من اللحظات رأى بوليفار نفسه ثائرا انتهى امره إلى الفشل فاصبح طريد العدالة والسلطات الحاكمة ، فقيرا تأخذ بمخنقه الضائقة المادية . . ومع ذلك فإننا نراه فى هذه الظروف البالغة السوء يضطلع بعمل عسكرى كفل له ذروة المجد والشهرة . . ونحن نعنى بذلك حملته المذهلة التى قادها سنة ١٨١٣ بينما لم يكن عدد رجاله يتجاوز خمسمائة ! بهؤلاء الرجال بدأ بوليفار تلك الغزوة التاريخية التى استغرقت مائة يوم متوجها من سفوح جبال الانديز فى غرناطة الجديدة (جمهورية كولومبيا الآن) حتى قصر القيادة الاسبانية العامة فى كاراكاس (فنزويلا) . . وفى نهاية هذه الحملة يسطع نجمه فى تلك العاصمة ويرتبط اسمه إلى الأبد باستقلال أمريكا اللاتينية ، فيدعى منذ هذا التاريخ بذلك اللقب الذى أصبح علما عليه :

محرر القارة :

ولا يمض على هذا الانتصار الهائل عام واحد حتى نرى بوليفار هاربا لاجئا إلى سواحل الكاريبى ، وقد تخلى عنه اتباعه وتنكروا له ، وبدا كما لو كان كل ذلك المجد قد استحال إلى دخان ، وان هالة العظمة التى توجت رأسه لم تعد تشفع له ازاء غضبة اولئك الذين كانوا يمدون إليه اصابع الاتهام ويسيئون إليه ابلغ الاساءة !

ولكننا هنا نرى كيف تتكرر المعجزة : ففى الوقت الذى أطل فيه الشامتون والمتربصون لينظروا اين يذهب بوليفار لكى يجتر مرارة الهزيمة والهوان . . إذا بهم يرونه هناك متربعا على الذروة من جديد فى غرناطة الجديدة (كولومبيا) وقد قبضت يداه على زمام الأمر بعد أن خال الجميع انه قد أفلت منه إلى الأبد . . وإذا به يدخل بوجوتا دخول الظافرين كما دخل إلى كاراكاس من قبل ، حاملا إليها الحرية والكرامة .

* * *

فى ديسمبر ١٨١٩ قدم بوليفار إلى بوجوتا حيث وضع نظام الإدارة وأسلوب الحكم فى كولومبيا ثم رحل إلى انجستورا لعقد الجمعية الوطنية ووضع القانون الاساسى للدولة الجديدة : الجمهورية المتحدة التى تضم فنزويلا وكولومبيا واكوادور وبنما .

ولم يلبث قليلا حتى عاود القتال لاستكمال خطط التحرير بين سنتى ٢٠ و ٢١ حتى دخل كاراكاس يوم ٢٩ يونيو ١٨٢١ ومنها انطلق إلى اكوادور التى

كانت فى قبضة الحكم الاسبانى فوجه نحوها جيشان احدهما بقيادته يتجه شمالا نحو مدينة كيتو وثانيهما بقيادة معاونه الفذ الجنرال دسوكر يأخذ دور الطرف الثانى للكماشة التى أطبقت على المدينة فأحرز كل من الجيشين نصرا مؤزرا ، وبذلك تحررت « اكوادور » نهائيا من السيطرة الاسبانية ودخلت فى دائرة كولومبيا الكبرى .

وما أن أحرز بوليفار هذا النصر العظيم وتحققت به بعض آماله العريضة حتى جاءته انباء مؤسفة عما حدث فى « بيرو » من شقاق ومؤامرات وحرب داخلية ، وقد دعته الجمعية الوطنية للاسراع بالحضور لانقاذ الموقف فاسرع إلى مدينة كايو وهو يقدح زناد فكره من أجل إعداد جيش وطنى استعدادا لمواجهة القوات الاسبانية واجلائها ولكن المرض حل به وأقعده عن الحركة . . وبينما كان يمنى نفسه بالقدرة على النهوض ويحدث زائريه عن الأمل المرتقب كانت حامية كايو قد تدلت فى الضياع وانضمت إلى القوات الملكية الاسبانية ، واعقب ذلك سقوط العاصمة : ليما .

ولم تجد الجمعية الوطنية بعثا للأمل واستنهاضا للهمم إلا أن تعلن بوليفار حاكما مطلقا له جميع السلطات والصلاحيات . . وإذا هو يغادر فراش مرضه ويقوى على الامه ويتولى قيادة حملة جديدة ويحرز انتصارا باهرا فى « خونين » ويسترد « ليما » بينما كان ساعده الأيمن الجنرال دى سوكر قد أحرز نصرا باهرا فى « ايا كوتشو » وبذلك استطاعا تطويق القوات المعادية وانزال هزيمة نهائية بها .

وهكذا وبعد حروب مريرة ومعارك قاسية استطاعت « حرب الاستقلال » ان تبلغ غايتها وان تحقق تحرير البلاد .

وفى يوم ١٠ فبراير ١٨٢٥ مثل بوليفار أمام الجمعية الوطنية فى « ليما » وأعلن

تخليه عن السلطات الاستثنائية التى منحها اثناء معارك التحرير ، وقررت الجمعية الوطنية للمحرر العظيم مكافأة مالية قدرها مليون بيزو . . ولكنه اعتذر عن قبولها ورفض أية مكافأة معتبرا ان مكافأته الحقيقية هى تحرير البلاد وان كل جهد بذله إنما كان من صميم عمله وصلب رسالته .

ان المكافأة الحقيقة التى نالها سيمون بوليفار هى الاجماع الذى تم على اطلاق اسمه على الجمهورية الجديدة : جمهورية بوليفيا . . التى حررها ووضع دستورها ونظام حكمها وخطوط مستقبلها . . ثم اقسم اليمين امام الجمعية الوطنية رئيسا للجمهورية يوم ١٠ سبتمبر ١٨٢٧ .

. . وهنا ، ادرك بوليفار أن مهمته انتهت وانه احرز ماعاهد الله عليه . . وهو تحرير البلاد من الاستعمار الاسبانى . . وبانتهاء مهمته احس بوليفار بانتهاء حياته . . وقد حل به مرض الموت الذى اطبق عليه فى سانت ماريا يوم ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ .

ونقلت رفات بطل التحرير فى احتفال شعبى مهيب إلى المعرض الوطنى فى العاصمة كراكاس فى سنة ١٨٤٢ .

وبذلك انتهت حياة مناضل بطل ، وقد عاشها كلها لمهمة واحدة هى تحرير بلاده ، وأصبح بوليفار شخصية تاريخية لها مآثرها الخالدة وذكرياتها الحميدة التى تضعه فى مصاف عظماء العالم فى جميع العصور .

بل يمكن القول بأن سيمون بوليفار كان نسيج وحده . لم يكن شخصية ذات خصائص محددة أو ميزات معدودة وإنما كان عدة شخصيات كبيرة فى إنسان واحد . . كان جنديا فذا وسياسيا بارعا وخطيبا مؤثرا وكاتبا حصيفا . . وفى كل هذه الشخصيات المتجمعة فيه كان سيمون بوليفار نموذجا للشباب

ورمزا للبطولة .

وإذا ما طرحنا من حياة بوليفار سنوات الطفولة يمكن القول بأنه عاش ثلاثين سنة من عمره هى ثلاثين سنة نضال لم يحصل فيها على «إجازة» ولم ينعم براحة . . وإنما كان يمضى من معركة إلى معركة ويأخذ مهمة بعد مهمة ، وكأنما كان مشدودا إلى ساقية تعطى باستمرار ولاتتوقف عن العطاء . . بينما كل الظروف حوله توحى باليأس وتشرف به على الضياع .

كان بوليفار يحارب استعمارا ثقيلا جائرا وينشىء جمهوريات كبرى ولايفتأ يواجه الخداع والخيانة والغدر . . حتى كان يقول : لقد كنت احرث فى البحر ! ولكنه كان ينهض ويعاود أكثر جرأة وقوة وتصحيحا . . كان وريث ثروة ضخمة وصاحب املاك واسعة . . ولكنه انتهى فقيرا أعطى كل شىء ولم يأخذ لنفسه شيئا . . كان بوسعه أن يكون ملكا أو دكتاتورا . . ولكنه آثر لقبه المفضل : المحرر .

هذا هو سيمون بوليفلر . . فى سطور . . الشاب البطل الذى حرر امريكا اللاتينية .



جورج واشنطن

١٧٣٢ - ١٧٩٩

- الأول فى الحرب
- والأول فى السلم
- والأول فى قلوب مواطنيه

« قرار الكونجرس الأمريكى »

* كان والده أوجستين واشنطن قد تلقى تعليمه فى انجلترا ثم عاد إلى فرجينينا وعمل فى مزرعته التى آلت لأولاده من بعده .

* لم يتلق جورج واشنطن تعليما منتظما ولكنه تلقى تعليما دينيا فى الكنيسة ثم تعليما مدنيا حتى سن الخامسة عشرة . وقد ظهر تفوقه فى الرياضيات والمساحة ، فمدرسته الحقيقية كانت معترك الحياة والخبرة العملية والتجربة .

* اشتغل مساحا ، وهى مهنة من طبيعتها الصبر وتحمل المشاق وبعد النظر .

* فى سنة ١٧٥٢ توفى أخوه ، وأصبح واشنطن مالكا أحسن ضيعة فى فرجينيا ، وهو فى العشرين من عمره ، وكان يعد الزراعة أبدع المهن وأشرفها .

* فى تلك السن – وفى مزرعته التى شملت ٨٠٠٠ « أكر » – وصفه أحد عارفيه بأنه « دوغرى » . الطول ٨ قدم و ٢ بوصة مفتول العضل – عريض المنكبين – يزن ١٥٧ رطلا ، يعلو عينيه الزرقاوين الرماديتين حاجبان كثيفان ،

وأنفه كبير ومستقيم ، وفمه واسع لكنه مطبق باحكام يتحرك ويتكلم باحترام ، وإذا امتطى صهوة جواده فهو فارس بهى الطلعة ، وله مكانة مرموقة بين جيرانه ومواطنيه .

من المزرعة إلى الميدان

* عندما دوى النفير فى فرجينيا لمواجهة الفرنسيين بادر واشنطن بنفض يديه من المزرعة وتقلد بندقيته وانضم إلى صفوف المحاربين والمتطوعين ، وكان قائد الجماعة التى حملت الأنذار إلى الفرنسيين :

الجلاء أو القتال :

ولما رفض الفرنسيون الجلاء عن «أوهيو» اشترك واشنطن فى العمليات الحربية ، وبرغم أن قواته لم تنتصر إلا أن تصميمه لم يضعف وعزيمته لم تهن وأدرك أنه مفطور على القيادة والنضال . . وقال فى ذلك :

« لقد استمعت إلى صوت الرصاص ، وفى الحق لقد أحببت موسيقاه » .

* فى سنة ١٧٥٠ عين أركان حرب جيش فرجينيا تحت قيادة الجنرال برادوك ثم أصبح – وهو فى الثلاثة والعشرين من عمره – قائدا للقوات عقب مصرح الجنرال فى المعركة . . فباشر مسئوليات التدريب – والانضباط وإعادة التنظيم وبث روح المبادأة والاقدام بين رجاله الذين كانوا فى مستوى هابط وإعداد سقيم .

العودة إلى الأرض

* وعندما توقفت الحرب – بغير نتيجة – عاد واشنطن إلى مزرعته يعيد إليها

نبضها وحيويتها ، وتزوج فى سنة ١٧٥٩ « مارثا واندريدج » وكانت أرملة غنية – وربة بيت ممتازة – تكبره بعدة أعوام ولها طفلان ، وقد تبنى الطفلين وأحسن تنشئتهما – فهو لم ينجب – وضم مزارع زوجته إلى مزراعه ، وأصبح من كبار الملاك الأثرياء .

* كان له – كمالك لمزارع واسعة – نظرات ونظريات :

. . الزارع الناجح هو الذى يتولى أرضه بنفسه « إن أرضا متوسطه تحت أعين صاحبها مباشرة – خير من أرض كثيرة بعيدة عن ادارته » .

. . « لاتشتر شيئا تستطيع أن تجلبه بنفسك » .

يعنى مبدأ الاكتفاء الذاتى ، فكان فى مزرعته كل مايحتاج إليه ، البيت المؤثث – مكنة المياه – طاحونة القمح – ورش النجارة والحدادة والأحذية – أنوال نسيج القطن والكتان والصوف – حظائر العجول – مصنع الألبان . .

كان يستخدم العبيد ولكن يحسن معاملتهم ويعتنى بطعامهم ولبسهم ، وكان يرفض تجارة الرقيق .

. . كان هيئا ، يرتدى أوجه الثياب وأحدث المختارات من الصدارى والقبعات ، ويستخدم « البايب » ويلعب الورق والبلياردو ، ويقوم برحلات الترفيه والصيد ويحضر سباق الخيل وقتال الديكة ويرتاد المسارح وقاعات الموسيقى والسيرك ومعارض الكلاب . . ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ، ويشترك فى الأندية وحفلات الضيافة ويساهم فى خدمة المجتمع ، كما كان عضوا منتخبا فى مجلس المدينة .

* طابت لواشنطن حياة السلم لكنه كان مستعدا للأنتقال إلى الميدان عند أول أشارة : « ان بندقيتى جاهزة لكى ألبى نداء وطنى » .

. . . وكانت قد لاحت فى الأفق بوادر النزاع بين الأنجليز والأمريكيين .

* فى سنة ١٧٧٤ كان نائبا عن فرجينيا فى كونجرس الولايات وقال عنه باتريك هنرى ان واشنطن أقوى رجل فى الكونجرس وكانت خطاباته تمتاز بالجدية والحرارة : « إذا كانت الحكومة مستمرة فى تضييع حقوقنا فإن دما غزيرا سوف يسيل . . وفى كلمة : لم يكن له مثيل فى تاريخ أمريكا .

* فى سنة ١٧٧٥ أصبح قائداً عاما لقوات فرجينيا ثم قائدا عاما لقوات الولايات الأمريكية .

* عين قائدا عاما للقوات الأمريكية فى حرب الاستقلال . . بغير أجر .

* أصبح رئيسا للولايات المتحدة سنة ١٧٨٩ ثم جددت رياسته مدة أخرى .

* رفض تجديد انتخابه للمرة الثالثة وعاد إلى مزرعته ليحيا حياة هانئة فى ظلال المجد الذى أفاء به على الولايات المتحدة .

* مات هادئا ، بلا شكوى ولا ألم مساء يوم ١٤ ديسمبر ١٧٩٩ .

يحب السلم . . ولايخشى الحرب

لم يكن جورج واشنطن محاربا بحكم الصنعة ، ولم تكن الحرب هوايته ولكنه كان مواطنا عاقلا محبا لوطنه . . فلما دعاه الداعى لامتشاق الحسام وانقاذ الوطن تولى قيادة الجيش وحارب بكفاءة وبسالة .

كذلك لم يكن جورج واشنطن سياسيا يحدوه الطموح إلى الزعامة والرئاسة ، ولكن عندما اجتمعت عليه الكلمة لقيادة بلده بعد حصولها على الاستقلال فإنه صدع بالأمر وأصبح أول رئيس للولايات المتحدة يدخل البيت الأبيض .

وهذه – بلاريب – هى الجندية المثلى والوطنية الرشيدة .

الجندى المثالى هو الذى يحارب لانقاذ وطنه إذا تعرض للعدوان ولكنه لا يحارب للاعتداء على الآخرين ، وهو يحارب من أجل استقلال شعبه وتدعيم مركز بلاده وليس للمطامع الشخصية والأمجاد البطولية .

وكذلك السياسى الأريب هو الرجل الوطنى الذى يقدم ذكاءه وكفاءته لإصلاح شئون وطنه ورفعة شأن مواطنيه ، بدون أن يروم لنفسه منافع شخصية أو مكاسب ذاتية . .

ان واشنطن لم يتعلم الحرب فى الكليات الحربية ولم يتدرج فى رتب القيادة وإنما مارس الحرب على الطبيعة ومن خلال الاشتباكات والمعارك – شأنه فى ذلك شأن خالد بن الوليد وأبى عبيدة وعمرو فرسان العرب الميامين – ولكنه كان قائدا موفقا ببركة إيمانه الصادق وبفضل تجاربه الميدانية وقدرته فى التأثير على رجاله وحيازة ثقتهم وتعمير نفوسهم بالنظام والشجاعة والكرامة .

وهو أيضا لم يتعلم مقدمات السياسة والحكم فى المدارس والجامعات ، ولكن إعماله الفكر فيما حوله وتدربه فى المجالس والأندية والاجتماعات جعلته مواطنا فاهما وبرلمانيا قديرا ورئيسا للدولة فى أول عهدها بالاستقلال .

. . ولذلك ، فإن الأمريكيين يعدون جورج واشنطن « أب الولايات المتحدة » فهو قائد الجيش الأمريكى إلى النصر فى حرب الاستقلال وهو أول رئيس للولايات المتحدة أرسى أساس استقلالها ونظامها ، ووضع دعائم المركز العظيم الذى تشغله الولايات المتحدة فى العالم .

كان واشنطن رجل حرب وسياسة بالطبيعة والتجربة الشخصية والدراسة الميدانية يقرن إلى مواهبه الحربية خصائص رجل الدولة السياسى الوطنى

الحصيف ، وقد نجح فى الساحتين معا ، فعده العسكريون أعظم قواد أمريكا الذين قادوا بلادهم فى أصعب الظروف إلى أحسن النتائج ، كذلك فقد عده السياسيون أحد الثلاثة العظام فى تاريخ البيت الأبيض.

ولعل أقوم مافى واشنطن أنه كجندى لم يختط طريق الحرب للشهرة أو لشهوة الغزو ، وإنما كانت دوافعه دائما الدفاع عن الوطن ، وأنه كسياسى لم يعمل لنفسه ولا لجماعة تنتمى إليه أو حزب يخضع لأمره . . وإنما عمل لمصلحة وطنه .

لقد كان واشنطن مزارعا هوايته التنمية والابتكار والاجادة ، وقبل أن تكون له مزارع غنية كان يشتغل مساحا يجوب الأرض ويقيس بدقة ويرسم ببراعة ويعيش حياة سليمة راغدة . . فلما دعاه الوطن فى ساعة النضال تقدم بروح عالية وكفاية ممتازة ، وأصبح قائد الجيش الأمريكى مدى سبع سنوات بغير أجر .

من المزرعة . . إلى الميدان

عندما دوى نفير الجهاد نفض واشنطن يده من زراعته وحمل بندقيته ، وراح يشترك فى صفوف جنود ومتطوعين مهلهلى الثياب محدودى التدريب مفتقرين إلى السلاح والمؤن والنظام والانضباط . وفى أول معركة ينطلق الرصاص حوله من مسافة قريبة وينفق تحته جوادان فلا يروعه الخطر ولايخيفه الرصاص ، بل يكتب إلى أحد أصدقائه « لقد استمعت لصوت الرصاص وفى الحق لقد أحببت موسيقاه » ! ! فقد كان قلبه عامرا بالشجاعة والوطنية . . ولما انتهت الحرب عاد إلى المزرعة . . وكان مسلكه فى السياسة مثل مسلكه فى

الحرب ، فعندما رشح وانتخب رئيسا لبى النداء وأدى مهمته خير أداء وحقق لأمريكا أعظم نجاح فى رياسته لأول جمهورية بعد الاستقلال . . ثم رفض تجديد انتخابه الذى كان عليه إجماع للمدة الثالثة وعاد إلى مزرعته

ومثلما فعل فى فاتحة حياته حين ترك عمله الريفى إلى ساحة القتال أزمع أن يعمل فى أخريات أيامه – وبعد رياسته فى المدتين – فلم يقبل أن يظل قاعدا تحت ظلال المجد وذكريات البطولة حين اضطرب حبل الأمور بين فرنسا وأمريكا وأنذر بالحرب سنة ١٧٩٨ ، وإنما نهض على الفور يتولى قيادة الجيش حتى مرت الأزمة بسلام . .

هكذا كان جورج واشنطن – كما أعلن الكونجرس – الأول فى الحرب ، والأول فى السلم ، والأول فى قلوب مواطنيه .

العظمة الإنسانية

ولقد أحرز واشنطن هذه المكانة الطيبة ، فى مزرعته ، وفى قيادة جيش ولايته ، وفى قيادة جيش حرب الاستقلال ، وفى البيت الأبيض ، لأنه كان محبا لوطنه وأمينا فى قيادة جنوده ومواطنيه ، وبقيت سيرته عاطرة واسمه مقرونا بالتقدير العام والاحترام . . ووصفه أحد المؤرخين بأنه يمثل نوعا من العظمة الإنسانية الجديدة ، وأنه نسيج وحده . .

وقد عرف العالم قبل واشنطن قوادا عظاما كالاسكندر المقدونى وفردريك الأكبر وقيصر . . ولكن القواد العظام كانوا غالبا مفتونين بزهوة الفتح ونشوة النصر والشهرة . . أما واشنطن فكان يحارب لا رغبة فى الحرب ولكن دفاعا عن البلاد وحفاظا على الاستقلال والكرامة .

كذلك عرف العالم سياسيين أذكياء وحكاما ذوى براعة وسلطان وقد نجحوا بالسياسة والدهاء والقوة فقوضوا العروش وتحكموا فى مصائر الشعوب ، أما واشنطن فلم يسع إلى الحكم ولم يهدم أحدا ولم يقوض ملكا وإنما دعاه الشعب ليكون أول رئيس وهو زاهد فى الحكم – فقام بواجبه وخدم أمته ، ثم رفض أن يكون رئيسا طول الحياة .

فهو رجل ملىء بالعظمة الإنسانية التى ميزته فلاحا فى مزرعته أو قائدا لجيش الاستقلال ، أو رئيساً للولايات المتحدة . . وكان فى جميع هذه المراحل والأعمال هو هو ، لايغيره ولايحوله عن مبدئه مطمع ولا سلطان .

حرب الاستقلال

عرف واشنطن الحرب فى ميدانها وفى سن مبكرة ، فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما وقعت اشتباكات بين أهالى فرجينيا والهنود والفرنسيين – الحرب الهندية الفرنسية – ومن خلال هذه الاشتباكات عرف أساليب الهنود فى قتال الغابات وأساليب الفرنسيين وخاصة فى أعمال التحصين والدفاع . ولهذا يمكن القول بأن واشنطن كان جنديا مدربا تدريبا عمليا واقعيا قبل أى أمريكى آخر عندما بدأت حرب الأستقلال .

وعندما نشب النزاع بين الأمريكيين والانجليز ، وتطلع الأمريكيون إلى الاستقلال وهم تحت وطأة الاستغلال والاستنزاف ، التقت الأنظار على الجندى الوطنى الممتلىء تجربة وحماسة ورصانة ووقع الاختيار على واشنطن قائدا عاما فى شهر يونية سنة ١٧٧٥ .

ولم تكن مهمة واشنطن قيادة القوات فحسب ، وإنما كان عليه أن يتولى بنفسه واجبات إدارية وتنظيمية وميدانية شاقة ومتنوعة ، فالقوات التى كانت تحت امرته مجموعات غير منظمة ولا مدربة كما أنها تدين بالولاء إلى الولايات التى جاءت منها ولم يسبق لها أن انتظمت تحت قيادة موحدة . . ولذلك شرع واشنطن فى عملية تنظيمية وإدارية وإعلامية جادة ، لكى ينشىء جيشا وطنيا متحدا يدين بالولاء للدولة كلها ، وقد تمكن واشنطن من تحقيق المهمة الصعبة خلال السنتين من الجهد المتواصل على حين كان يوالى تحت إشرافه المباشر خطط التدريب والتسليح والتنظيم لكى يواجه الجيش البريطانى المتمركز تحت أعلام السلطة والنفوذ والتقاليد .

كذلك كان يتابع عن كثب ، ويصرف ويعدل بنفسه الشئون الإدارية وإمكانيات التموين والاعاشة والمواصلات والأسلحة والذخيرة ، وقد حالفه التوفيق فى بداية العمليات الحربية إذ وقع فى يد الأمريكيين عدة مصانع ومخازن أسلحة وذخيرة ومؤن كانت لها أهمية قصوى ، وكان يمنى نفسه بأن يبلغ مبلغ الانجليز من التنظيم وسلامة المواصلات وخطط الامداد والتموين برغم مئات الأميال التى تفصل بين الجيش الانجليزى فى أمريكا وقواعده المركزية فى الجزيرة البريطانية . .

كما أن واشنطن واجه الوضع السياسى للولايات بذكاء وكياسة ، فقد اتحدت القوات تحت لوائه بدون أن تندمج السياسات وتتآلف الامكانات . . إن أحوج ماتحتاجه البلاد فى حالة الحرب : الوحدة . . وحدة الرجال ووحدة النضال . . وكانت مهمة واشنطن التقريب بين وجهات النظر ومحاولة توحيد الجهود وايثار الصالح العام للدولة على الصالح الخاص لكل ولاية .

نهض واشنطن بالعبء كاملا وعمل بإخلاص وكفاية فى ميدانى الحرب والسياسة ، وكان مقدراً أنه يواجه عدوا أكثر عددا وتنظيما وسلاحا وعتادا ورسوخا وخبرة ، ولذلك لم ترهبه أن تبدأ العمليات بارتداد الأمريكين إلى نيوجرسى مهما كانت الهزيمة مكدرة ، بل لقد تلقى ضربة بعد أخرى دون أن يسلم بالهزيمة ، فهو لم ييأس قط فى أشد مواقف الخطر ، ولم يفارقه الهدوء النفسانى والثقة بالنصر النهائى . . وهذا محك القائد العظيم .

أخذ واشنطن بخطة الانسحاب مع محاولات تعطيل العدو وازعاجه وعرقلة تقدمه ، وأحسن الاستفادة من المواقع الطبيعية والانهار ، وكان يتراجع من مركز دفاعى إلى مركز بعده ، وبذلك استطاع أن يؤخر تقدم الانجليز ويصيبهم بخسائر كثيرة . وكانت براعته فى تنظيم الانسحاب قاضية على أمل الانجليز فى الظفر بالقوات الأمريكية الرئيسية وفرض سيطرتهم على أمريكا عصرا آخر .

كانت أوامره ألا تترك فرصة لمهاجمة الانجليز وتكبيدهم الخسائر . . وقد استطاع فى معركة نهر الدولير أن يقوم بهجوم مفاجىء « ويأسر ألف جندى ويعود إلى مواقعه » ! كذلك فى معركة بريستون برهن واشنطن على ابتكاره وقدرته على المبادأة والمفاجأة والتصرف السريع فى أشد المواقف صعوبة وخطرا .

ان معركة بريستون التى انتصرت فيها القوات الأمريكية على القوات الانجليزية ليست مما يدخل فى عداد المعارك الكبرى أو العمليات المشهورة ولكنها كشفت عن مواهب واشنطن ، وقد برز فيها جامعا بين جرأة دوق وليام ، وذكاء المارشال مارلبورو . كما أوضحت تلك المعركة أهمية الجمع بين ضروريات القيادة ومقتضيات السياسة .

لم يكن قد سبق للولايات (أى المستعمرات) الأمريكية أن تتحد فى أمر

مشترك فيما بينها . كانت ثلاث عشرة ولاية منها تعنى بشئونها الذاتية . ولم يكن لها جيش واحد وإنما مجموعة من المتطوعين أو رجال المليشيا الذين يتدربون فترة ثم يسرعون بالعودة إلى ديارهم . ولذلك قرر جورج واشنطن إنشاء جيش دائم ، وانبثقت فكرة الاستقلال فى ابان الحرب وظهرت دعوة الاتحاد :

لقد حان الوقت لغرس بذرة الوحدة بين المستعمرات الأمريكية « إيمانا وشرفا »

وفى الرابع من شهر يوليو ١٧٧٦ صدر إعلان الاستقلال .

. . . هكذا مبكرا ! وقد تضمن المبادىء الديمقراطية وأرسى قواعد المستقبل البعيد . .

وأعلن الأمريكيون « حقوق الإنسان » .

وحاربوا خمس سنوات فى قتال شديد الوطأة متعدد الساحات كثير الخسائر يتأرجح بين النصر حينا والهزيمة أحيانا . .

فى أغسطس ١٧٧٦ قرر واشنطن الاستيلاء على نيويورك ، ونجحت عملياته فى بريستون إلا أن قواته هزمت فى براندى وأنبى ثم فى جيرمان تاون وكادت الكارثة أن تحدق به ، لكنه مرق بقواته بأعجوبه واتجه غربا نحو وادى فورج وهو يعانى المشاق ويلم شعث جيشه . .

وفى تلك الأثناء جاءه أحد رجال الحرب المغاوير وهو البارون الألمانى فون شيوبنى يعرض خدماته . ولما دخل واشنطن المعركة التالية كان أكثر دراية وإدراكا وكانت قواته تقاتل بحماس فأحرز انتصارا مؤزرا فى «سارتوجا» المعركة التى تدخل فى عداد المعارك الفاصلة فى التاريخ ، لأنها كانت مقدمة واضحة للنتيجة النهائية لحرب الأستقلال .

كذلك أحرز واشنطن انتصارا رائعا فى شمال نيويورك وقضى على قوات الجنرال البريطانى بير جوين الذى وقع فى دائرة الحصار ، وحيل بينه وبين وصول التعزيزات إليه فقرر الاستسلام .

ثم تلقت أمريكا تحية تقدير وتأييد عالمية إذا قررت فرنسا وأسبانيا وهولندا الوقوف إلى جانبها فى صراعها من أجل الاستقلال ، وكان ذلك مشجعا لواشنطن وقواته الباسلة وهى تواجه المصير ، مصير المعركة ومصير البلاد ، فبذل جهودا مستميتة فى إعادة التنظيم وفى تزكية حرب العصابات - حتى جاءت مرحلة المعارك الأخيرة الحاسمة .

كان الجنرال كورنو الليس يقف بقواته البريطانية فى يورك تاون يخطط لخوض معركة يستعيد بها الموقف ويدفع بالشراذم الأمريكية إلى هزيمة لاتقوم لها بعدها قائمة ، وكان يتطلع إلى المحيط فى انتظار التعزيزات وفى مساعدة الأسطول .

وفى الناحية الأخرى كان واشنطن يخطط لمعركة أخيرة فاصلة يحكم فيها الحصار على الانجليز برا وبحرا حتّى يضطرهم للاستسلام التام ، وكان حلفاؤه الفرنسيون يفكرون بدورهم فى السيطرة على الخطة واحراز النصر المنشود على طريقتهم . . فكان ثمة خلاف يهدد بالانفصال لولا تدخل الأسطول الفرنسى للحيلولة دون مساعدة قوات البحرية البريطانية للجنرال كورنوا لليس ، المحتمية فى يورك تاون ، على حين تقطع القوات الأمريكية خط رجعته إلى داخل البلاد ، وبذا يصبح مطوقا من البر والبحر .

وقد نفذت الخطة تماما وأسقط فى يد الجنرال البريطانى الذى أصبح فى المصيدة ولم تعد قواته قادرة على القتال ولا الخروج من المأزق الحرج الذى

صارت إليه ، بلا عون من الأسطول ولا أمل فى التعزيزات . .
استسلم الأنجليز وانتهت الحرب ، وتم توقيع الصلح فى ٣ سبتمبر ١٧٨٣ واعترف جورج الثالث باستقلال الولايات المتحدة .

فى البيت الأبيض

انتصر الأمريكيون فى حرب الاستقلال . .

ولم يكن واشنطن ممن يتباهون بالبطولة أو يرحبون بالأضواء ، لكن عندما انتهت الحرب كان كل امريكى يعلم أن هذا الرجل « واشنطن » هو الذى أحرز النصر. وأن الولايات المتحدة الأمريكية مدينة لبطولته فى الحصول على الاستقلال . .

لقد كان واشنطن فى خلال الحرب يضع الخطط ويحرك القوات وينشىء جيشا نظاميا ويتفق مع حلفائه فى أشق المواقف ، ويفكر فى شتى المصالح الحربية والمدنية فى آن معا .

وعندما انتهت الحرب أراد أن يعود إلى مزارعه فى ظلال السلم الذى حققه والمجد الذى دان له ، ولم تكن له أية أطماع فى السياسة والحكم ، غير أن انفكاك الوحدة وعودة النعرة الاقليمية بكل ولاية وخفوت الجهود فى اعادة تنظيم الدولة وحماية الاستقلال . . اقتضت دعوة الرجل الذى قاد الولايات فى الحرب ليتولى قيادتها وتدعيم وحدتها فى أول عهدها بالاستقلال .

وقد تم انتخاب واشنطن رئيسا للجمعية التى أنيط بها وضع نظام الدولة ودستورها . وفى خلال ست سنوات تمكنت الولايات المتحدة أن تمضى على طريق الوحدة والنظام والحرية كدولة كبرى ذات دور مؤكد فى طور جديد من

أطوار التاريخ .

وأصبح واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة فى ٣٠ أبريل ١٧٨٩ ثم أعيد انتخابه لمدة رياسة ثانية وبعدها أعتذر نهائيا عن تجديد ترشيحه .

ومنذ عهد واشنطن أصبحت رياسة الولايات المتحدة أهم حدث يتابعه رجال السياسة والحكم والجماهير . . ليس فى أمريكا وحدها ولكن فى العالم كله .

نماذج من الغرب

- الاسكندر المقدونى
- جان دارك
- مايكل انجلو
- وليام شكسبير
- نابليون بونابرت
- لودفيج بيتهوفن
- مارى كورى



الاسكندر المقدونى

القائد الشاب الذى قهر الدنيا وهو فى
سن الثلاثين . . والنجم الذى مازال مضيئا
فى سماء الجندية عبر آلاف السنين . .
والبطل الذى يزهو به الشباب فى كل حين .

مازال اسم الاسكندر الأكبر مشهورا فى كل أنحاء الدنيا ، فهو قدوة شباب الجندية ، يقرأون فى تاريخه صفحات البطولة والمجد وآيات الاقدام واللماحية وسمات العبقرية العسكرية وخصائصها .

إنه القائد الشاب الذى ولى أمر بلاده فمنع عنها اعداءها المتربصين حول حدودها ، ثم قادها إلى ميادين الغلبة والفتح ، فأصبح سيدا لأكثر من نصف الدنيا فى ثلاث عشرة سنة ، وقهر الفرس – أكبر قوة فى زمنه – وغزا آسيا حتى بلغ البنجاب وفتح طريق الشرق لأهل الغرب .

لم يكن الاسكندر قائد جيش وحسب ، وإنما كان ملكا مصلحا يحمل المدنية والنظام إلى الاقطار التى فتحها ، فكسب تقدير أهلها وثقتهم ، وقدم إليهم الثقافة اليونانية ، وسعى إلى تزاوج الشرق والغرب ليكون العالم أسرة واحدة .

تربية الشباب

جاء الاسكندر إلى الدنيا بينما كانت جيوش والده فيليب ملك مقدونيا تدفع الاعداء عن حدودها فى عصر كان البقاء فيه للأصلح ، أى للأقوى وقد اشترك والده ووالدته فى تنشئته فاختار كل منهما معلما للاسكندر . . اختار له ابوه : الاستاذ « ليزيماكوس » واختارت له أمه أوليمبيا الاستاذ « ليوانيدس » ليكون له مربيا ، فطبعه بخاتم الرجولة والهمة والاحتمال ، وعوده الاعتماد على النفس ، والاقتصار على الضرورى ، والعزوف عن الكماليات والملذات . .

هكذا نشأ الاسكندر نشأة جادة مستقيمة ، وعاش حياة الجنود وارتدى ثياب البطولة مبكرا . . ويذكر أنه كان لأبيه جواد عنيد لايجسر على ركوبه أحد من الفرسان ، فما كان من الاسكندر – وهو بعد فى الثامنة عشرة من حياته – إلا أن نهض فلوى عنان الجواد وادار وجهه ناحية الشمس ثم قفز على ظهره . ومضى ! فأسلس له الجواد عنانه واستسلم لبراعته بين دهشة النظارة وفرحة ابيه الملك الذى قال له :

« يابنى . . لابد لمثلك من ملك واسع . . ان مقدونيا وحدها أضيق من أن تتسع لهمتك ! » .

وفى خلال عشرين سنة كان هذا اليافع الشجاع قد غزا العالم ، فلما مات حصانه هذا فى الهند اطلق الاسكندر اسمه العزيز على مدينة اسميت « بوسيفاليا » ، على حد رواية المؤرخ اليونانى الأشهر بلوتارك .

واستدعى له والده كبير فلاسفة عصره ، وأحد الخالدين . . أرسطو ، فكان له أعظم الأثر فى توجيهه وصقله .

ودخل الاسكندر حومة القتال تحت قيادة والده ضد الاتينيين عام ٣٣٨ ق . م – وكان فى الثامنة عشرة من عمره – قائد فرسان مقدونيا فى معركة شارونيا التى كان له فيها دور حاسم نمّ عن براعته ومقدرته وتفوقه ، كما أنه عرك شئون الحكم فترة طويلة فى غياب والده فعرف الكثير من هذه الشئون ، فلما قتل الملك فيليب غيلة فى عام ٣٣٦ ق . م . استوى الاسكندر على عرش مقدونيا وهو فى العشرين ، وقد انعقدت له القيادة العسكرية والزعامة الشعبية ، وبدأ بداية موفقة ، فقد كان يقول :

« أن التأثير الذى يحدثه الحاكم فى بداية عهده يبقى خالدا مدى حياته » .

ولاريب فى أن الاسكندر قد عرف الحياة مبكرا ، واتخذ لنفسه قيما ومبادىء ، وأصبح رجل رأى وفكر وليس مجرد ملك أو قائد جيش . وقد حدث أن التقى القائد الشاب الفاتح فى مدينة كورنثة مع الفيلسوف الاشهر « ديجونيس » فنزل الاسكندر عن جواده واتجه إلى الرجل الزاهد الجالس على الأرض يصطلى بدفء اشعة الشمس .

ولقد حيا الاسكندر ديجونيس ، وسأله :

ماذا استطيع أن أؤديه لك ؟

قال الفيلسوف : تستطيع أن تبتعد عنى . . فلا تحجب ضوء الشمس ! . .

ثم دار بينهما حوار ممتع ، واحب كل منهما صاحبه ، وكان الاسكندر يقول :

« لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديجونيس » .

ويقول :

« منحنى والدى الحياة ، وعلمنى أرسطو كيف أكون إنسانا كبيرا »

* * *

لقد واجه الاسكندر عقبات شتّى فور ارتقائه عرش ابيه ، إذ استصغر أعداؤه شأنه ، بل ان بنى وطنه نكصوا على اعقابهم فيما كانوا يعدونه لقهر اعدائهم . . وكأنما كان صغر سنه مدعاة لليأس من جانب قومه والعدوان من جانب خصومه ! ؟

وسرعان ماأعد الاسكندر عدته ، واتجه إلى المتألبين عليه فدحر جيوشهم ، وقهر عزائمهم واخضع كل بلاد الاغريق ، ثم شرع فى غزو قارة آسيا . . فالمجد كالشمس . . يبزغ فى الشرق .

. . وفى أقل من عشرين سنة كان الاسكندر ملك الدنيا . .

إلى الشرق

تحركت حملة الاسكندر عبر الدردنيل ، ومضت على ثرى آسيا فى غزوة جريئة وكان أول انتصاراته فى معركة « جرانيفنة » – ٣٣٤ ق . م – حيث أحدق بأحد جيوش فارس واستولى على آسيا الصغرى ، ثم مضى فى سلسلة انتصاراته تحت سمع التاريخ وبصره . وقد رصد المؤرخون مشروعات الاسكندر الاستراتيجية وخططه التكتيكية . واعتبروا إنه قائد من الصف الأول فى التاريخ ، كما اعتبره نابليون أعظم القادة الذين احتوتهم قائمته التى تضم سبعة قواد عظام ، هم : الاسكندر – هانيبال – قيصر – جوستاف ادولف – تورين – البرنس اوجين – وفردريك الأكبر .

وكان الاسكندر ، إلى جانب براعته العسكرية حكيما لايحتك بالماديات ولايعرف الحياة سوى إنها جهاد وتضحية وأمل . . فلما كان يحرز النصر ، ويوزع اسلاب الحرب كان قواده يسألونه : الا تأخذ شيئا لنفسك ؟ فيقول

الاسكندر : يكفيني الأمَل ! ؟

. . وعندما جاءوا له فى خيمته بزوجة خصمه داريوس . . بكى الاسكندر . . فقد كانت زوجة ملك ، وأجمل نساء زمانها ، وأمر بإرسالها إلى قصرها معززة مكرمة .

وهكذا ، انتصرت البطولة الحقة ، فلم يسكرها خمر النصر ، ولم تهزمها شهوات الشباب . . ولقد بلغ الاسكندر اوج المجد وقمة الشهرة وهو فى ريعان الشباب فلم يغير طبيعته الفاضلة هذا الملك العظيم ولم يفسده ذلك المجد الذى لم يحلم بمثله حالم .

وفى خلال المعارك كان الاسكندر يقف فى عربته ، وقد وضع الدرع على صدره وريشا أبيض على جانبى خوذته ، وكان يخوض المعمعان وسط جنوده فيلتف حوله القادة ينشدون وقايته ويطلبون إليه الحيطة فلا يأبه لذلك ، وكأنه كان يرحب بالموت فتوهب له الحياة .

الحرب هى الهجوم

والآن إلى المعركة الكبرى ، إلى حيث يستعد الملك الأكبر ، كما كان داريوس ملك الفرس يلقب نفسه ، وهو يحكم العالم ! كان جيشه أكبر خمس مرات من جيش الاسكندر وكان يحارب فى الأودية التى يعرف مسالكها جيدا ، وبهذا كان له التفوق العددى والمبادأة والأرض وروح الدفاع العدائى . . ولكن كان قبالته : ألمعية الاسكندر وجيشه المنظم .

وكان الاسكندر يفهم الحرب على أنها الهجوم بأكبر قوة وفى أسرع وقت ، فما أن لاقى جيوش دارا الثالث فى « ايوس » حتى بدّد شملها وأحرز انتصارا

باهرا جعله يتقدم من فوره لمهاجمة « صيدا » ثم « صور » التى قاومت طويلا فاضطر الاسكندر إلى تدميرها .

أربيلا

ان دخول الاسكندر المقدونى آسيا كان فصلا من فصول التاريخ الخالدة الذى تطورت على أثره علاقة أوربا بآسيا .

كان القائد الشاب يندفع بحماسة الشباب ويثب إلى مواقع خصومه قبل أن يتنبهوا لخططه ، فكانت المفاجأة اساس عملياته والهجوم هو سبيله فى الحرب ، وبذلك انتزع السيادة التى كانت لقارة آسيا وفتح للغرب الطريق إلى الشرق .

قال نابليون عن الاسكندر :

« لقد عبر الاسكندر نهرى الفرات ودجلة ، وخاض معركة « أرابيلا » التى انتصر فيها على الملك الأكبر « داريوس » فحل عقدة الامبراطورية الفارسية وأخذ علمها ، فاستسلمت له بابل وسوسا وباسر جاد – حيث مدفن الفيلسوف «كورش العظيم » -- ثم انعطف شمالا فامتلك شطوط بحر قزوين وبلاد الديلم ، واقتص من « باسوس » الخائن الذين قتل خصمه داريوس ، وغزا الهند ، وأسر بوروس ملك البنجاب ، واستولى على ثمانمائة سفينة حربية » !

ولقد مضى على معركة « ارابيلا » أكثر من ألفى سنة ، ومع ذلك فانها تعتبر من فواصل معارك التاريخ ، ومازالت حتى اليوم تدرس فى الكليات والمعاهد العسكرية فى العالم كنموذج فى فنون القتال وشاهد على براعة القائد .

تقع مدينة ارابيلا شرق نهر دجلة ، بينه وبين جبال كردستان ، فى سهل أرض شاسعة منبسطة أى ملائمة لسير العربات ومناورات الفرسان ، وقد كان

لداريوس المبادأة فى اختيار أرض المعركة وزمانها فأحسن الاستعداد لخوضها ، ولم يكن امام الاسكندر سوى المهارة فى تنظيم عملياته ودفع جيوشه وفق خطة تكتيكية بارعة .

كان جيش الاسكندر اربعين الفا من المشاة وسبعة آلاف فارس مسلحين بالرماح الطويلة (١٨ قدما) والسيوف والنبال ، وكان جنوده – على حد وصف المؤرخين وتقارير المعارك – متفوقة فى مستوى التسليح والتدريب والانضباط والروح المعنوية ، بينما كانت قوات جيوش فارس متعددة الأركان من افغانستان وبخارى وكردستان وتركستان وروسيا . . وكان يدعم هذه الجيوش عدد من الفيلة وكثير من العربات .

الأوضاع والخطط

نظم داريوس جيشه على مهل فى مواقع دفاعية على شكل طائر فكان القائد فى جبهة القلب على رأس الرماحة ، ورماة النبال والجنود المحترفين – المرتزقة – وقد وضع أمامه ٥٠ عربة و ١٥ فيلا ، وقد مد جناحيه ، فوضع فى الجناح الأيمن مشاة قوية تتقدمها ٥٠ عربة ، وفى الجناح الأيسر مشاة ثقيلة وفرسان وأمامهم مائة عربة وألف فارس .

اما الاسكندر فقد نظم قواته بطريقة أخرى ، فقد اهتم بوضع احتياطى خلف جبهة القتال من الفرسان ، والاحتياطى قد اصبح احد مبادىء الحرب التى لاغنى عنها لتحقيق النصر .

وضع الاسكندر فى القلب ست فرق مشاة ، وفى الجناح الايسر مشاة وخيالة قوية وفى الجناح الأيمن ثمانى فرق فرسان ، ومعهم حملة تروس المشاة ،

وكان الاسكندر فى الجناح الأيمن ! .

وقف الخصمان على قدم الاستعداد ، وفى فجر اليوم بدأ الاسكندر هجومه المفاجىء ، فتحرك الجناح الأيسر الفارسى نحو الجناح الأيسر اليونانى فأسرع الفرسان إلى صدهم ، ثم تحركت العربات الفارسية والخيالة فانهزمت امام حملة الحراب وضاعت هذه الهجمة القوية هباء ، وأخيرا وقع أكبر هجوم فارسى بالفرسان على جناح اليونان الأيمن – حيث كان الاسكندر نفسه – فصد ذلك الهجوم . وحتى ذلك الحين لم تكن جبهة الاسكندر قد تأثرت ، بل كانت تنتظر الفرصة المواتية ، وقد جاءت هذه الفرصة حين فتحت ثغرة فى صفوف الفرس بين الميسرة والقلب ، فاندفع إليها الاسكندر على رأس حرسه واخترق الجبهة الفارسية وأحاط بالميسرة فى حين تقدمت المشاة حملة التروس فشغلت قلب الجيش الفارسى . . ونظر دارا فإذا جيشه قد تفككت أوصاله وسحقته الهزيمة فأطلق عنان حصانه وفر من الميدان قبل أن يقع فى الأسر . .

على حد تعبير الشاعر العربى :

بنفسك فز إذا ماشمت حتفا

وخلّ الدار تنعى من بناها

فرّ دارا برغم أن جيشه كان يقاتل باستبسال ويتبادل هو وأعداؤه أزمة الموقف بين وقت وآخر ، ولكن فرار القائد ضيع عزيمة الرجال . . فكانت الهزيمة الماحقة .

وهكذا انتهت معركة أربيلا ، ونزع الاسكندر صولجان القوة عن هامة اسيا ثم استولى على بابل عاصمة أول امبراطورية فى الدنيا . . وبدأت مرحلة جديدة من التاريخ .

ولقد مضى على هذه المعركة ألفى سنة أو تزيد ، ومازالت تدرس فى الأكاديميات الحربية فى العالم كنموذج فى فن الحرب وبراعة القيادة ، وإنها من المعارك الفاصلة فى التاريخ .

وبعد ارابيلا اتجه الاسكندر إلى سوريا ، ففتح ابوابها المنيعة ، ثم غزا فلسطين ومصر – فى أواخر سنة ٣٣٢ ق . م – وخلصها من حكم الفرس واعاد مكانتها القديمة .

منشىء الاسكندرية

وقد دعا الاسكندر المهندس اليونانى الشهير « دينوقراط » وكلفه ببناء مدينة الاسكندرية فجعلها عروس البحر الأبيض المتوسط ، واثبت الاسكندر أنه ليس رجل حرب وغزو . . وإنما رجل إصلاح وعمران ، وأثبت تاريخ عشرين قرنا من الزمان بعد نظر الاسكندر . . وهاهى ذى الاسكندرية تكرم اسمه وتذكر به إلى أبد الدهر .

وفى مصر زار الاسكندر معبد أمون ، ملتمسا العناية الالهية ، واعتبر نفسه ابن الاله آمون . ولما غادر مصر عاد إلى آسيا ليتم غزو الامبراطورية الفارسية ، ثم إلى تركستان والهند ، حيث اجرى إحدى معارك التاريخ الكبرى وقد هزم فيها القائد المشهور « بوروس » اعظم قواد الهند فى جميع العصور .

قائد جيش وقائد فكر

بعد معركة الهند سأل الاسكندر غريمه :

« ماذا تريد منى ؟ » .

قال بوروس :

« ان تعاملنى معاملة الملوك »

وقد اجابه الاسكندر إلى ماأراد ، وتركه ملكا على الهند . .

وكان القائد الشاب قائد جيش وقائد فكر ، وقد كان يرغب فى ربط الشرق بالغرب عن طريق الزواج ، وذكرت مراجع التاريخ أنه فى ليلة واحدة تم زواج عشرة آلاف فارسى وفارسية ومقدونى ومقدونية .

وذكر الدكتور طه حسين فى كتابه « قادة الفكر » ان الاسكندر لم يكن قائد جيش ليس غير ، وإنما كان قائد فكر قبل كل شىء وفوق كل شىء ، وان تجربته لو تمت واستمرت لغيرت وجه الأرض ، وحولت سير التاريخ . .



جان دارك

١٤١٢ - ١٤٣١

عذراء أوليان ، التى اختارت فى سن الحب والزواج أن تزف إلى وطنها ، وان تدق طبول الفرح ابتهاجا بانتصار جيشها وتتويج أميرها . .

حتى إذا ظفر بها الاعداء ونفذوا فيها الحكم بالموت – حرقا – انتقلت جان دارك إلى احضان التاريخ . . بطلة ، وقديسة ، وشهيدة حب الوطن .

الفتاة الريفية البسيطة ، ابنة الثمانية عشرة ربيعا ، عاشت هموم الهزيمة التي حاقت بوطنها الفرنسي فى حرب المائة سنة ، وكأنما كانت الهزيمة قد نزلت بها وحدها ، وكأنما كان الاحتلال الانجليزي يجثم على انفاسها هي ، دون غيرها . . وإذا بأصوات غامضة تطن فى اذنيها وتوحي إليها أن السماء قد اختصتها بدور وطني تاريخي ، وأعدتها لقيادة الحرب ضد الغزاة المحتلين ، وإنه على يديها سوف تنفرج الأزمة وتنتهي الغمة ، ويتم لبلدها النصر المبين .

ولقد تملكها ذلك الخاطر ، وكأنه وحي يوحى ، فلم تستطع أن تكذبه أو تتحول عنه ، وأمتلأ قلبها بالإيمان والشجاعة والاخلاص والفداء .

هذه الراعية الصغيرة جان ، ابنة جاك دارك ، الرجل الريفي الطيب ، من دوقية دو مريمى – بين شامباني ولورين – اخذت عن والدها صفاء النفس وارهاف الحس ، وعن امها الإيمان والتدين ، وكأنها راهبة ! وقد عرفت بين

اترابها بالصدق والطيبة والوداعة .

لقد استمعت الصغيرة جان جاك دارك إلى أصوات علوية تحدثها . . هي أصوات القديس ميخائيل والقديسة كاترين والقديسة مارجريت . . ثم لاحت اشباحهم كأنها تراهم رأى العين ، وكانت هذه الأصوات تطنّ حولها وتوحى إليها أنها ستذهب للقاء « الدوفين » الأمير شارل ولى العهد فتأخذ بيده وتوليه عرش البلاد وتتولى قيادة الجيش وترفع الحصار عن أورليان .

ولما حدثت أقرب الأقربين إليها بما سمعت ووعت لم يصدقها أحد ، بل إن حديثها كان يقابل بالسخرية . . إذ كيف لفتاة ريفية صغيرة لاعلم لها بالسياسة ولاطاقة لها على الحرب أن تتولى قيادة الجيش وتكسر حلقة الحصار وتهزم الانجليز ثم تتوج اميرها ملكا على البلاد ! ؟

غير أن الأصوات استمرت تدندن فى آذانها والشجاعة تسيطر على مشاعرها حتى ايقنت تماما من حقيقة أمرها وقداسة رسالتها ، فتقدمت بشجاعة هائلة لأداء مهمتها . . مهما كان الهدف بعيداً والطريق صعبا . . والخيال يجبّ الحقيقة ، واليأس أبعد من الرجاء .

كان عرش فرنسا فى ذلك الحين حقا شرعيا لولى العهد الأمير شارل وراثة عن والده الملك شارل السابع ، ولكن الانجليز – فى عهد ملكهم هنرى السادس – كانوا يحتلون الجزء الأكبر من فرنسا ويحولون دون توليه العرش ، واستمر الحال على هذا المنوال طوال خمس سنوات فى ظل الاحتلال دون بارقة أمل ، حتى ران اليأس على النفوس واستسلم القوم للخنوع والضياع .

وجاءت اللحظة التاريخية عندما القت الاصوات فى اذن جان دارك ان تبدأ مسيرتها ، فأطاعت إلى الفور واتجهت فى شهر مايو ١٤٢٨ إلى قلعة

« فوكولور » ، وهى من القلاع التى استمرت تحت حكم الأمير الفرنسى ، وهناك قابلت جان دارك قائد الحامية الكابتن روبرت د بود ريكور ، الذى لم يأبه لها ولم يصدق دعواها ، فعادت حزينة آسفة على اخفاقها ، ولكن الأصوات عادت تبشرها وتدفعها إلى معاودة المسعى فذهبت إليه فى شهر يناير ١٤٢٩ وإذا هو يبحث معها طلبها بعناية ويحاول أن يصدقها ، فقرر أن يجرب حظها وأن يقدمها للأمير ، لعل وعسى . .

ولبست جان دارك عدة الحرب وانطلقت فى رفقة عدد من الجنود الذين آمنوا بدعوتها فاجتازوا طوال إحدى عشر يوما رهيبة مناطق يحتلها الانجليز حتى بلغوا « شينون » مقر قيادة الامير . . الذى تحير فى شأنها وتردد فى استقبالها ، ولكنه بعد يومين من التفكير والتأمل وافق على مقابلتها واتخذ فى هذا اللقاء أسلوبا غريبا حتى يتحقق من كنه هذه الفتاة الريفية التى جاءت له بالأمل .

لم تكن جان دارك قد رأت هذا الأمير من قبل ، ولذلك فقد تخفى هو بين مجموعة من الرجال حتى يرى إذا كانت ملهمة حقا فسوف تكتشفه وكان هذا أول اختبار لقدراتها وروحانياتها . . ولدهشة الجميع دخلت « الفتاة الجندى » إلى الساحة واتجهت على الفور إلى الأمير وقدمت له التحية وقالت له بثبات واطمئنان إنها ستؤجج الحرب ضد الانجليز ، وإنها ستتوجه ملكا فى كنيسة ريمس ؟ !

ولقد وضع رجال الأمير ضيفتهم جان دارك تحت الاختبار وجاءوا بعدد من العلماء والعارفين بالفلك والسحر ، فأصدروا حكمهم بعد ثلاثة اسابيع بانها « عظيمة الفكر والرأى وإنها تعمل بقوة خافية » ونصحوا الأمير بتصديقها وتنفيذ خطتها .

ولما جاءوا لها بسيف ردته شاكرة بأن السيف الذى سوف تتقلده ينتظرها فى كنيسة سانت كاترين . . وقد تحققت هذه النبؤة عندما دخلوا الكنيسة ومدت جان دارك يدها وراء المذبح وأخرجت سيفا باهرا ، وتقلدته !

وقالت جان دارك للقادة العسكريين ماأدهشهم عن المعركة المرتقبة ، بأنها لن تكون فى بواتيه – كما يظنون – وإنما فى أورليانز ! ؟

وتحركت القوات تتقدمها جان دارك حاملة اللواء ومتجهة إلى أورليان التى كانت تحكمها حلقة من الحصار الشديد ، وقد استطاعت جان ان تمرق من بين الحرس وان تدخل إلى المدينة وبرفقتها ضابط يدعى لاهاير وقد حمل الاثنان بعض المؤن والذخيرة للقوات المحاصرة فكان لذلك تأثير معنوى رائع .

وفى ليلة ٤ مايو تنبهت جان دارك على صوت يدعوها لبدء الهجوم ، فاتخذت للأمر عدته وتحركت قواتها لشن هجوم كبير على حصن « سان لوب » ونجح الهجوم واستعاد الفرنسيون هذا الحصن المنيع ، وكان ذلك أول انتصار بعد عدة سنوات من الهزيمة والاستسلام .

لم تدع جان دارك الوقت يمضى بل سارعت إلى معركة ثانية خلال يومين وهاجمت قلعة « سان جين لوبان » التى كان الانجليز قد عاجلوا بدعمها ، على أثر استسلام قلعة « سان لوب » ، ولكن الهجوم كان عاصفا تمزقت على أثره جميع الموانع والدفاعات ولم تنفع معه المقاومة والبسالة ، وانتهت المعركة بخضوع واستسلام حاميته الكبيرة .

وفى فجر ٧ مايو قادت جان دارك هجوما قويا على قلعة « ليتوريل » على ضفاف نهر اللوار ، وانتهت المعركة بانتصار كبير ، وفيها أصيبت جان دارك بجراح اقتضت نقلها للعلاج ولكنها سرعان ماعادت إلى قلب المعركة وكان

لعودتها تأثير معنوى بالغ فاشتد القتال واستسلمت القلعة وضاع أمل الانجليز فى المقاومة فقرروا الانسحاب الشامل نحو مدينة مونج – على نهر اللوار – وكان التكتيك الحربى يقضى على جان دارك بمواصلة الضغط على القوات المنسحبة لكن اليوم كان يوم أحد وقد رفضت جان دارك القتال فى ذلك اليوم وفضلت للجنود الصلاة والراحة !

وفى يوم ٩ مايو رحلت جان دارك إلى تور ومنها إلى لوش حيث قابلت ولى العهد ودعته أن يجهز نفسه للذهاب إلى ريمس حيث تتم اجراءات تتويجه ملكا . . غير أنه كان مترددا ، وكان جنرالاته ينصحونه بان ينتظر حتى يتم تخليص كل اراضى نورماندى من العدو .

وعادت جان دارك إلى مركز قيادتها وبدأت تعد العدة مع الجنرال الدوق النسون – قائد القوات الفرنسية – لشن هجوم شامل من أجل تخليص المدن الواقعة على نهر اللوار ، وبدأت بالهجوم على مدينة مونج التى رابطت فيها قوات انجليزية كثيفة فائقة القوة ، فاحكمت حولها حلقة الحصار .

ثم انتقلت جان دارك إلى ساحة معركة كبرى فى « باتاى » يوم ١٨ يونيو ١٤٢٩ وتنبأت بان الامير شارل سوف يحرز نصرا باهرا لم يسبق له مثيل . . وفعلا احرزت انتصارا ساحقا ، وقد لاذ بالفرار قائد القوات الانجليزية سير جون فاستولف ، وسقط فى الأسر نائبه الجنرال شروز برى .

وهنا ، أصبحت جان دارك صاحبة الحظوة الكاملة والكلمة المطاعة عند ولى العهد الأمير شارل ولم يعد لرأى مستشاريه وجنرالاته أية أهمية بعدها .

. . وجاءت اللحظة التى وجدتها جان دارك لتحقيق غايتها الكبرى وهى تتويج الملك ، وقالت : « الآن يجب أن نذهب إلى ريمس »

ووافقها الأمير ، وبدأت الاستعداد للاحتفال بتتويجه .

وكان الطريق عبر اراضى البورجنريان إلى ريمس يموج بألوية النصر ، وقد بلغها الأمير يوم ١٤ يوليو ، وبدأت مراسم التتويج ، وجاءوا بالزيت المقدس – كعادة الفرنسيين عند تتويج ملوكهم – وركعت جان دارك إلى جانب الأمير شارل بينما قام راعى الكنيسة الارشيبيشوب رجنولت د شارتر ، اسقف فرنسا فوضع التاج على رأسه .

. . وصاحت جان دارك :

« أيها الملك العظيم . . لقد تحققت إرادة الآلهة وتمت سعادتهم ، لقد رفعت الحصار عن اورليان ، وجئت إلى ريمس لتتويجك . . أنت الآن الملك ، وكل فرنسا لك » .

وقد بلغت جان دارك فى تلك اللحظة أوج الانتصار والمجد .

وأصبحت جان دارك بطلة ذائعة الصيت عظيمة القدر ، وصار اسمها رمزا للصدق والشجاعة والفدائية .

غير أن حياة جان دارك انتهت بمأساة أبكت الدنيا فى الماضى ومازالت تستدر دموع الناس فى كل عصر ومكان .

لقد استطاع الانجليز بمهارتهم الفائقة على تدبير المؤامرات أن يوقعوا جان دارك فى شراك خصومها وأن تصبح فى قبضتهم . . لقد اسرها البرجنزيون حلفاء الانجليز وباعوها لهم .

وكانت محاكمة عجيبة ، الخصم فيها هو القاضى ، والجناية : الشعوذة . . أو استخدام السحر ، والجناية الثانية : ارتداء ملابس الرجال .

وصدر الحكم الجائر بالسجن مدى الحياة .

ولم يكتف الخصم الحكم بهذا الجزاء ، وإنما راح ينسج تهمة أخرى ، وهى أن جان دارك – فى سجنها – لم ترجع عن افكارها التى حوكمت من أجلها ، وأصرت على دعوى الوحى ، والأصوات التى كانت تستمع إليها وتلبى أوامرها . .

ولم يعدم الانجليز الوسيلة لبلوغ اقسى الاحكام التى عرفت فى التاريخ كله فأصدروا قرارا بأن تحرق جان دارك .

وبدأ المشهد الأخير فى حياة جان دارك ، فى ميدان سوق روين يوم ٣٠ مايو ١٤٣١ .

وظهرت جان دارك بين سجانيها وقتلتها وهم يتوجهون بها إلى مسرح إعدامها .

ونظرت جان دارك حولها إلى الجمع الذى جاء يشهد مصرعها . . وطلبت صليبا ، فلم يؤذن لها بذلك الطلب الأخير إلا أن جنديا شجاعا تقدم من بين الصفوف ووضع فى يدها قطعتين من الخشب فرسمت بها الصليب ونظرت إلى السماء ونطقت بكلمة واحدة أخيرة : يسوع .

وألهبتها النيران ، فغابت عن وعيها ، وماتت محترقة . .

وقد وجدوا قلبها سليما لم تمسه النار .

والقى رماد جثمانها من فوق كوبرى روين ، فى نهر السين .

وبعد ٢٥ سنة من موتها ، اعيدت محاكمتها ، فى عهد شارل السابع ، وصدر الحكم ببراءتها .

وبعد خمسمائة سنة – أى فى سنة ١٩١٩ – أعلن البابا « بنديكت الحادى عشر » ان فتاة دومريمى قد ارتقت إلى مصاف القديسات .

وقال لامرتين : شاعر فرنسا العظيم :

جان دارك . . الشجاعة . . القديسة . . البطلة الوطنية الفرنسية . . المحاربة . . البتول . . الملاك . . العذراء .

وقال برنارد شو :

علينا أن نعترف وان نعجب بجان : النجيبة ، الذكية ، الفتاة الريفية ذات العقلية الجبارة ، والجرأة البدنية ، ان كل شيء قامت به كان محسوبا ومخططا بعناية ، ولهذا كان نجاحها سريعا ومؤكدا كما حدثتها الأصوات المقدسة . . لقد كانت امرأة سياسية وليست مجرد أداة صماء .

وملأت سيرة جان دارك العالم واحتلت ابهى صفحات التاريخ ، فذكرها شكسبير فى ملهاته « هنرى السادس » ، وفولتير فى « لابوسيل » وشيللر فى « عذراء اورليان » ، ومارك توين فى « مذكرات شخصية لجان دارك » ، واناتول فرانس فى « حياة جان دارك » وبرنارد شو فى « القديسة جان دارك » .

ولعل هذا هو أعظم تقدير واحترام . . للعبقرية والوطنية .



مايكل أنجلو

١٤١٢ - ١٤٣١

- إمام مصورى عصر النهضة
- وأعظم المثالين فى جميع العصور

حياته فى سطور

● مايكلا نجيلودى لودفيكو بوناروتى – سيمونى ، شهرته : ميكل انجلو (١٤٧٥ – ١٥٦٤) .

● ولد فى مدينة كابريس – بمقاطعة توسكانى – إيطاليا – ٦ مارس ١٤٧٥ .

● من أسرة قديمة عريقة ، والده لودفيكوبوناروتى ، ووالدته فرنشسكا دى نرى ، أرضعته ونمته زوجة عامل فى محاجر الرخام ، وكأنما تفتحت عيناه على النحت وتركز فكره فى الرخام ، وكان يقول فى قمة تفوقه : « لقد أرضعتنى مربيتى اللبن من ثدى الرخام» ، وقال «أعطنى جبلا أنحته لك» ! .

● توفيت والدته وهو فى سن السادسة وتزوج أبوه غيرها ، وأقام فى بيت أبيه بفلورنسا ، بجوار كنيسة كروسى وتصاحب مع أولاد رسام كان يعمل لحساب ورشة دومنيكو شيرلندابو ، فكان كل ما حوله يوحى إليه بالتعلق بالفنون . فلما

كان فى الثانية عشرة من عمره اشتغل صبيا فى تلك الورشة مما أثار غضب أبيه .

● فى ١٤٨٨ بدأ فى عمل الرسومات الفرسكو على حوائط الكنائس ولكن موهبته تجلت فى النحت . وقد أصبح فيما بعد مصورا ومهندسا ومثالا ، وتفوق فى كل هذه الفنون . . كما أنه كان كاتبا لفت أنظار الأدباء .

● فى ١٤٨٩ التحق بمدرسة النحت فى حدائق مديشى ، وكان لورونزودى ريشى حاكم فلورنسا يشجع الشبان المولعين بالفن لدراسة المجموعات الأثرية تحت اشراف برتولدودى جيوفانى تلميذ الفنان دوناتللو . وهناك درس فن النحت على الرخام من عهود اليونان والرومان . ولما ظهرت مواهبه وتجلت براعته دعاه حاكم فلورنسا ليقيم فى قصره فكفل له العيش والأمان والعمل الذى يحبه ، وهنالك اطلع على الأعمال العظيمة لكبار المثالين الإيطاليين والأجانب .

● فى ١٤٩٢ مات لورنزو وخلفه ابنه بيرو الذى لم يحسن التعامل معه حتى أنه أمره بأن يصنع تمثالا من الجليد ! أىّ مجهود ضائع . . وغادر قصر الحاكم وقام بصنع ثلاثة تماثيل لقديسين ومَلاك بتكليف من أسرة ألدوفراندى ، فى كنيسة سان دومينكو فأنجزها سريعا وكانت تعد من خيرة أعماله لكنها دلت على تيار جديد ، ثم صنع تمثال سان جون ثم تمثال هرقل (من الخشب) وبعدها تمثال « كيوبيد نائما » .

● فى ١٤٩٦ ذهب إلى روما وأنجز تمثالا رخاميا كبيرا . « كيوبيد واقفا » لحساب يعقوب جاللى — من هواة المجموعات . ثم تمثال « باخوسى » — من مقتنيات متحف بارجلو بفلورنسا ، ثم تعاقد مع الكاردينال الفرنسى جان فيليار ليقيم تمثال « البيتا » وهو يمثل العذراء وفى حجرها المسيح مسجى بعد صلبه ،

ووعده بأن يكون التمثال « أروع عمل رخامى فى روما وليس فى أمكان أى فنان كبير أن يضاهيه » . وقد وفى ميكل أنجلو بعهده ووضع اسمه على التمثال ، علامة الرضا .

● بين ١٥٠١ – ١٥٠٤ صنع تمثال « داود » المارد الرخامى الذى رفع اسمه إلى العنان فى إيطاليا ، وأصبح ميكل أنجلو أعظم مثال فى العالم .

● بين ١٥٠٤ – ١٥٠٦ – صنع ثلاثة روائع للمادونا « ٢ تمثال ولوحة : الأول تمثال للعذراء ومعها المسيح طفلا ، ويوحنا المعمدان – لم يكتمل التمثال – واشتراه سير جورج بومونت ، وهو معروض حاليا فى الأكاديمية الملكية للفنانين بلندن . والثانى : اقتناه بار ثلميوبيتى من فلورنسا ، وهو معروض حاليا فى البارجللو . والثالث : صورة للعذراء من مقتنيات جاليرى بوفيزى ، بفلورنسا .

● رسم معركة كاسينو لتزخرف بها إحدى حوائط مبنى القنصلية على حين كان ليونارد دفينتشى يزخرف حائطا آخر بمنظر فى معركة انجيارى . وقد اشتهر رسم ميكل أنجلو ، ووصف بأنه : أحسن رسم أكاديمى فى العالم وكان يمثل منظر الاستعداد للمعركة ، ليوحى لأهالى فلورنسا أن يكونوا دائما على قدم الاستعداد .

● ١٥٠٦ أقام فى روما حيث كلفه البابا يوليوس الثانى بزخرفة مقبرة تليق بمقامه واختار أجمل كتل الرخام من محاجر كرارا وبعد ثمانية أشهر عدل البابا عن فكرته تشاؤما !

● ١٥٠٨ استدعاه البابا ثانية إلى روما وطلب منه أن يزخرف سقف كنيسة « سيكستين » بالفاتيكان ، وعلى الرغم من اعتراضه – لأنه كان يفضل النحت على الرسم – فقد اضطر للاستمرار أربع سنوات داخل الكنيسة حتى أتم مجموعة

من الصور تعد أروع ماأخرج فى عالم فن الرسم والزخرفة . . وكان يعمل طوال هذه السنوات مستلقيا على ظهره .

● برغم أعماله العظيمة التى كان يمكن أن تدر عليه أموالا طائلة فقد عاش بلا مال ، وقد شغلته مواهبه الفنية عن الحب والزواج . وكان يقول : ان الفن هو زوجتى وأعمالى الفنية أولادى .

● كان مصورًا ومهندسا معماريا وشاعرا وأديبا ، وقد تفوق فى جميع هذه الفنون إلا أن عبقريته كانت فى فن النحت ، وهو أعظم مثال فى التاريخ وأعظم رجال الفن فى عصر النهضة الذى احتشد فيه صف من كبار الفنانين فى مقدمتهم ليونارد دافينشى .

● مات فى روما – ١٥٦٤ – ونقل جثمانه إلى فلورنسا ، حيث دفن فى أثر كتب عليه اسمه وأقيمت فوقه ثلاثة تماثيل لنساء ترمز للفنون التى تجلى فيها : العمارة . . والتصوير . . والنحت .

إذا كان ميكل أنجلو قد اشتهر فى عالم الفنون برسوخ قدمه فى الهندسة المعمارية والتصوير والنحت حتى صار أعظم رجال الفن فى عصر النهضة فإنه قد بزّ جميع السابقين واللاحقين فى فن النحت . . وهو يعّد أعظم مثال فى التاريخ .

وقد ارتبط فى طفولته بالفنون ، ويقال على سبيل التفكه – وربما الحقيقة – أن مرضعته كانت زوجة عامل يشتغل بقطع الرخام فتكون عينه قد تفتحت على مرأى هذا الحجر الجميل ، أو تكون حواسه قد تأثرت بطريقة قطع الرخام حتى أنه صار يتقنها بمهارة فائقة ، وهو نفسه كان يقول : « لقد أرضعت اللبن من ثدى الرخام » .

وكان معاصروه الأقربون يدهشون من طريقة تعامله مع الرخام وهو « يطيح بمنجله كميات وافرة من كتلة غاية فى الصلابة فى مدى خمس عشرة دقيقة بينما هى تحتاج إلى جهد ثلاثة من الشبان الأقوياء ينكبون على العمل ساعة كاملة » !

وكانت شدة حماسته — عندما يقبل على الرخام — تجعل المرء يخشى أن يرى عمله كله يتحطم ، فهو يضرب بقوة وسرعة وثقة كأنه ينفض الشظايا من حول جسم كائن فى الداخل يعرف تفاصيله جيدا . . لقد كان ينتزع من الرخام أروع شخصياته .

وكان هو يوضح ذلك بقوله : « ان الجسم المطلوب موجود فعلا فى كتلة الرخام ، ولايبقى على سوى انتزاعه منها » أى أن هناك جسما آدميا حبيسا ينبغى فض ماحوله واخراجه من سجنه ، أى من الصخرة التى اكتنزته فى داخلها ! ؟

ثم إنه نشأ فى فلورنسا ، فى جو ايطاليا الفنى ، وفى بيت بجوار الكنيسة حيث يشاهد الزخارف على حوائطها وسقوفها . وعلى مقربة من ورشة فنية وبصحبته أولاد مصور يعمل فى تلك الورشة . فاجتذبته إليه أو دفعته موهبته إلى أن يعمل بالفن وكان ذلك ضد رغبة أبيه ، ولكنه استمر فى طريق الفنون .

ولم تكن حياته الخاصة مما يشجع على تكييفه بصورة أخرى غير التى ارتضاها لنفسه ، فقد كانت تكفله مربية غير أمه التى لم يعرف عنها فى أثناء سنوات طفولته سوى أنها ماتت وهو فى السابعة من عمره ، ولقد تزوج أبوه بغيرها فلم ينشأ فى الأسرة وإنما فى الورشة ولم يسلك الطريق العادى الذى ينشأ عليه الأطفال بدخول المدارس وإنما كانت مدرسته الطبيعة . وكانت دوافعه لاتأتى من الآخرين — كالأهل والأقارب — ولكن من ذات نفسه ومن احساسه الفنى . . لقد استدرج مواهبه واستعرضها ، ونبغ فى الفنون جميعا وبزّ أقرانه

فرسان عصر النهضة ، وان كان قد جعل غايته الأولى كتل الرخام . . لكى يستخرج منها الأشخاص المختبئة فى بطونها .

وكما لم تكن لميكل أنجلو أسرة تحتضنه فى طفولته فإنه حين أصبح فنانا كبيرا لم تكن له أسرة يعيش فى حنانها وألفتها ، فقد شغله الفن عن الحب والزواج فعاش عمره كله يقلب فى الورق والألوان والزخرفة والخطوط الهندسية وكتل الرخام ، وبقى أعزب لايتزوج ، وقال فى ذلك : « ان الفن هو زوجتى ، وأعمالى الفنية هى أطفالى » .

ولقد عاش ٩١ سنة ، فهو فنان معمر . بلازوجة ولا أولاد ولاحياة بيتية . . ولامال ! فهو لم يكن يحسب ويحاسب ، بل كان بينه وبين المال عداء ، وفى كثير من الأحيان لم تنفذ العقود السخية التى كان يوقعها عملاؤه معه ، إما لطمعهم وإما لموتهم !

وعلى سبيل المثال تعاقد معه البابا يوليوس الثانى على زخرفة مقبرة أراد أن ينشئها لنفسه ، فصدع الفنان بالأمر بجدية وإنطلاق ، ومضى إلى محاجر الرخام فى «كرارا» وأمضى هناك ثمانية أشهر يستعرض كتل الرخام بعناية ودقة لايصدران إلا عن مثله فى إحساسه الشديد وإخلاصه المدهش لفنه . . وعندما عاد إلى روما كان البابا قد تحول وعدل عن رأيه وتشاءم من التعجل فى بناء لحده !

ثم عاد البابا نفسه يطلب منه عملا فنيًّا جديدا داخل كنيسة سكستين بالفاتيكان ودهش ميكل أنجلو لأن البابا طلب منه أن يزخرف سقف الكنيسة وحوائطها ، وكان هو يفضّل النحت عن الزخرفة برغم سبقه فى كلا الفنين ، بل لقد صارح البابا برأيه وحاول اقناعه بأن هذا العمل أنسب لرفائيل – أحد

عظماء المصورين . . « ان رفائيل يقوم بمهمة التصوير هذه . . أما أنا فاعطنى جبلا أنحته لك » ! غير أن البابا أصر على تكليفه بالعمل فنهض إليه وهو يعلم أنه أثر تاريخى وعمل خالد ، وأمضى أربع سنوات حبيس الكنيسة مستلقيا على ظهره حتى أتم أعظم أثر فنى فى الوجود . .

وعندما خرج إلى الشمس والهواء كان البابا قد مات . . وضاع عليه جانب كبير من أتعابه ! ؟

ولذا فإن حالته المالية كانت سيئة ، وصحته أيضا كانت تتدهور ومعارفه يسببون له المشقة ، فلا بد أن يمد لهم يد المساعدة فإذا توقف أذاعوا عنه صفات البخل والجحود .

اشتهر مايكل أنجلو مصورا ورساما ، وله فى كل فن آيات بينات ، فقد كان يحس دائما بحاجته إلى خلق أشكال وأعمال ضخمة ويفكر فى القمم والشوامخ حتى أنه ذهب إلى جبال الألب مفكرا فى نحت أحد شواهقه ليترك فيها تمثالا . . كأنه يستخرج من القمقم ماردا . كما كان يرنو ببصره إلى أبراج الكنائس فى سان لورنزو ، موطن اقامته بلفلورنسا ، وكانت نظرته الهندسية تحدثه بمشروعات هائلة ، وقد أتيحت له الفرصة لبناء قبة كنيسة سان بيير فى روما ، فوق المذبح الكبير ، وكانت تنتظم ١٦ طاقة من الشبك ، وزخرفها من الداخل بالفسيفساء (الموزايكو) ، وعنى بها ورسم فى وسطها « الآله الخالق » ثم وضع على الجوانب صور الباباوات والأساقفة المدفونين فى الكنيسة بالظلال والأضواء وبعناصر فنية فخمة ، وهى تعد أخلد عمل نفذ فى القرن السادس عشر .

وفى التصوير قدم لوحات عديدة وزخارف وتبلوهات رائعة ، وهو قد تفوّق على نفسه وبلغ الذروة فى جيله ، بل فى جميع الأجيال برسمه قبة معبد سكستين

وحوائطه فى الفاتيكان* ، فالرسومات بالفريسك تبهر الأنظار وتدهش العقول وكأن أشخاصها تعبر وتنطق وتتحرك ، فهناك ٣٠٠ وجه مرسومة داخل القبو بزخرفة مدهشة تمثل موضوع « التحضير وانتظار الفداء » أما زخارف الحوائط فتعبر عن « يوم القيامة » بحيث يخيل للرائى – نظرا لكثرة أشخاصها – أن عددها لايحصيه عد .

لقد شغل رسم القبة مساحة طولها ٣٦ مترا وعرضها ١٣ مترا ، وشغل رسم « يوم القيامة » مساحة طولها ١٣,٧٠ مترا وعرضها ١٢,٢٠ مترا .

ان لوحات الطوفان « شاب يحمل على كتفه زوجته المرتاعة » ، و« النبى دانيال » و « القديس بارثلمى » و « المسيح والعذراء » يجعل الإنسان فى حيرة من أمر هذا الفنان الخارق للعادة الذى جاد بهذه التحف والآيات الباهرة .

كل لوحة تشع بالحيوية والتدفق ، وكل وجه معبّر ناطق ، بل يبدو أن ميكل أنجلو أراد أن يجمع كل التعابير المتاحة للناس فى الحياة فجعلها فى وجوه شخصيات صوره : الإيمان – الثقة – القلق – التأمل – التعب – السعادة – الخبث – الخطيئة – الترقب – البراءة – الاتزان . . كل وجه يكاد ينطق ، وكل شعور يظهر واضحا ، وكل حركة وشيكة أن تتم ! والعجيب أن ميكل أنجلو – كما قدمنا – كان يريد أن يعتذر عن هذا العمل ! ؟ .

وجاء فى مذكراته : « اليوم بدأت أنا – ميكل أنجلو – أعمال التصوير اللازمة للكنيسة » .

---

* لقد أتيح لى أن أشهد آيات الفن الذى لايبارى ، فى خلال زيارتى للفاتيكان . وقد سعدت بصحبة الفنان صلاح كامل وتوضيحاته عن مكامن العبقرية فى أعمال ميكل أنجلو التى تخلب ألباب المشاهدين الذين يفدون كل يوم بالمئات . (المؤلف)

وسجل بعد سنة من العمل :

« ليس التصوير حرفتى . وأنا أضيع وقتى سدى » .

والآن . . وبعد خمسمائة سنة ماذا يقول زوار الفاتيكان وماذا يقول أعلام الفن فى كل زمان ومكان ! ؟

ألم يكن ميكل أنجلو مخطئا لو استمر فى اعتذاره ؟ ألم يعط عالم الفن كنزا لايقدر بمال عندما قام بهذا العمل ؟

ألم يترك للدنيا أثرا خالدا من العمل الفنى يضاف إلى تراث الإنسانية ؟ ؟

ألم يكن مصورا فى الصف الأول ، وأحد المصورين البارزين فى التاريخ كله ؟ !

كان ميكل أنجلو يعد نفسه مثّالا متواضعا ولكن أبناء وطنه عدّوه مثالا مبدعا ، وتاريخ الفن جعله أعظم المثالين بلامنازع . . فماذا كانت نظريته فى النحت ؟

رب مجتهد يقول أن المثال القدير هو الذى يمسك فى يده كتلة من الطين فيحورها ويجعل منها تمثالا للشىء الذى يريده . . وقل مثل ذلك فى الحجر أو الرخام أو الحديد أو الخشب .

لكن ميكل أنجلو كان لايصنع ذلك ، لقد كان يتولاه شعور مختلف . . كان يحس أو يعتقد أن داخل كل كتلة من الرخام جسم حبيس يريد أن يخرج . . وعلى الفنان أن يزيح عنه ماتجمد من المادة حتى يخرجه سليما معافى ؟ !

هل هو ساحر . . يخرج المارد من القمقم ؟

ويخرجه كامل الذات والصفات حتى يكاد يتحرك أو ينطق ؟ !

تلك أية العبقرية .

لقد كان ميكل أنجلو يريد جبلا من الرخام ليستخرج منه أشخاصا هو وحده يعرفهم ويقدر على اخراجهم بكامل هيئتهم وبكافة تعبيراتهم ، بلا خدش ولا علامة !

لذلك كان يضرب بمعوله فى الرخام بشدة وبسرعة وبلا أدنى خوف كأنه يثق تماما فى الحدود الدقيقة لضرباته ، إنه لا يخطىء فى « مللى » واحد ولا يخدش الجسم المصون . . يفعل هذا والشظايا تتطاير حوله والقلق يجسم على أنفاس من حوله . . وهو هادىء واثق متمكن يضرب بشدة ولا يسيل دما ، ويعمل بسرعة وكأنه على موعد ، ويخرج صاحبه من محبسه كما دخل أول مرة ؟ !

لقد أراد أن يخرج موسى من داخل الحجر ليقيمه على قبر بابا روما ، فذهب إلى « كرارا » ومكث ثمانية أشهر حتى أستطاع أن يستكشف كتلة الرخام وأن يجىء بها ويضربها بشدة وسرعة حتى خلص موسى وأقامه فى أحسن أحواله أو – على وجه الصحة – أقعده على حاله التى كان عليها فى إبان غضبه على قومه واحتقاره لشعبه المذنب . ان لم تكن قرأت عن موسى فانظر إلى قوته الهائلة وسحره العجيب والنور الذى يشع من جبينه بعد أن كلم ربه . . إنه يهم بالقيام بكل تؤدة وعظمة ويبدى مالم تكن تعرفه عنه من قوة ونشاط وكبرياء .

وإذا أردت أن تقابل بين موسى وصاحبه . . وجدت أن ميكل أنجلو كان يمتلك من قوة الاحساس وعظمة الأخلاق ما يماثل تلك التعبيرات التى تشع من وجه موسى .

أما أثر « داود » الذى يعتز متحف فلورنسا بوجوده بين مقتنياته فقد صنعه ميكل أنجلو خلال ثلاث سنوات فى إبان شبابه ، وجلب له من الصيت والشهرة ماجعله أعظم مثالى زمنه ، ويبلغ ارتفاع هذا المارد ستة أمتار ، وقف يحمل

قوسه استعدادا لقتال المارد « جوليات » ، كما جاء فى الأسطورة القديمة ، وقد بلغ من ضخامة هذا التمثال وثقله أن نقله من مصنعه إلى ميدان اقامته استلزم أربعين عاملا طوال أربعة أيام .

وهناك تمثال من الرخام يظهر العذراء جالسة وهى تحمل المسيح مسجى بعد صلبه ، وهو من أعمال شبابه التى تقف أمامها صفوف المتفرجين لايكاد أحدهم ينقل قدمه ، لأن الدهشة تتملكه وهو يجيل النظر بل يحاول أن يدخل فى أعماق تفاصيل هذا العمل الفنى الرائع .

وكثير من أعماله التى لم تتم تعد من آيات الفن ، وقد احتفظت بها المعاهد والأكاديميات الفنية كنماذج للدراسة لتتيح مزيدا من التفكير والتأثير وتشهد لصانعها بالقدرة والعظمة .

وإذا كانت أغلب أعمال ميكل أنجلو قد اتسمت بالروعة أو الكمال أو غيرها من الصفات ، فإنه يعدّ عند الفنيين والفنانين أستاذًا لا يبارى وفنانا لايجود بمثله الزمن ، وقد عاش طوال حياته المديده أسير عمله وعاشق رخامه ، وكان وهو يعبر عامه التسعين مشغولا بتمثال « التقوى » وهو تحفة ثمينة لم تتم ، أى أنه مات قبل أن ينتهى من إتمام تمثاله الأخير ، ومع ذلك يقال أنه من أحسن أعماله المعبرة والخالدة .



وليام شكسبير

١٥٦٤ - ١٦١٦

أى تمثال يريدون اقامته لشكسبير ؟
لقد أقام شكسبير لنفسه تمثالا هائلا
تشغل قاعدته مساحة بريطانيا العظمى
جميعا

فيكتور هوجو

حياته فى سطور

● وليام شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦)

● شاعر وممثل وكاتب مسرحيات من عصر الملكة اليزابيث الأولى ، عاش مغمورا ولم يعرف قدره إلا فى أخريات سنوات عمره حتى إنه دفن من غير احتفال ، ثم تكشفت عبقريته بعد موته فصار أحد معالم أمجاد بريطانيا ، بل قيل إنه : أعظم جوهرة فى التاج البريطانى .

● ولد فى بلدة ستراتفورد ، بمقاطعة وارويكشير – ٢٣ أبريل ١٥٦٤ .

● والده جون شكسبير . اختلفت الروايات فى تحديد مهمته بين الاشتغال بالزراعة ، والاتجار فى الصوف والحبوب والجلود والأخشاب ، أو أنه كان صاحب محل جزارة فكان ابنه يعاونه : « يقطع اللحم ويقرض الشعر » وكانت حالته المالية طيبة . . وفى بعض المراجع أنه كان رئيسا لمجلس المدينة وقاضيا

للمصالحات ، ووالدته مارى أروين .

● لم يعرف على وجه التحقيق شيء ثابت بالنسبة لأيام صباه وتعليمه لكن المحقق أنه تزوج فى سن الثامنة عشر « أنا هنواى » فى ٢٨ نوفمبر ١٥٨٢ فأنجبت له سوزان ثم توأمين : هامنت وجوديت .

● كانت الطبيعة مدرسته والكتب أساتذته ، وراح ينظم الشعر منذ صباه ويترنم به ويختلق المناسبات للخطابة والتمثيل ، ويهرع لمشاهدة الفرق الجوالة التى كانت تمرّ ببلدته لتقديم تمثيلياتها .

● اختفى عن بلده فجأة فى سنة ١٥٨٤ ، وقيل إنه انضم إلى إحدى فرق التمثيل المتجولة ، ولم يعرف إذا كان قد أخبر أهله بماعزم عليه أو أنه كان على صلة بأسرته فى أثناء غربته ، كما أن اسمه لم يظهر فى القوائم الرسمية التى تضم أسماء الممثلين حتى سنة ١٥٩٢ .

● كان الظلام يلفه فى لندن ، وهناك من حصل على معلومات تفيد أن شكسبير احترف مهنة رعاية الجياد التى يفد أصحابها إلى المسرح حتى يعودوا لتسلمها بعد انتهاء التمثيل ، وفى روايات أخرى أنه كان يؤلف مسرحيات للفرق الصغيرة التى كان يعمل بها ويتقاضى أجرا عن المسرحية أكثر من أجره عن التمثيل . . وعلى أية حال فالمتفق عليه أنه كان فى لندن وفى رحاب المسرح وأنه كتب أول مسرحية معروفة فى سنة ١٥٩٠ .

● وعندما توقفت مسارح لندن من سنة ١٥٩٢ إلى ١٥٩٤ بسبب الاضطرابات ثم بسبب انتشار وباء الطاعون تفرقت الفرق الموسيقية أو راحت تجوب الريف ، وكان شكسبير فى هذه العطلة يدرس اللغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، ويقرأ الأدب اليونانى والحكايات والأساطير القديمة ، ويكتب مسرحياته

الناضجة . . وقد شحذت مواهبه وبرزت عبقريته .

● ظهرت مواهبه التمثيلية – وان لم ترق إلى مستوى كتاباته – فكان خلال خمس عشرة سنة أحد نجوم فرقة شمبرلين ، إحدى الفرق المشهورة فى عهد الملكة اليزابيث ، وقدمت هذه الفرقة عروضها فى لندن بين سنتى ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ وبخاصة على مسرح « شورديتش » الذى كان يملكه ويديره والد الممثل الأول فى الفرقة : ريتشارد بورباج .

● كان شكسبير يكتب بمتوسط مسرحيتين كل سنة ، وكان دخله السنوى يبلغ ٦٠٠ جنيه ، « وكان هذا يعدّ دخلا هائلا » .

● عاد إلى موطنه ستراتفورد فى سنة ١٦١٠ عودة الجندى المظفر بعد انتهاء الحرب وعاش عيشة راغدة بين جيرانه الأثرياء ، حيث كانت له ضيعة كثيرة الخيرات وبيت كبير وحديقة مثمرة .

● توفى يوم ٢٣ أبريل ١٦١٦ فى الثانية والخمسين من عمره .

● برغم عشرات الكتب التى صدرت عن شكسبير فإن المرحلة الأولى من حياته ظلت خافية لم يكتب عنها شىء مؤكد ، كما أن شكسبير لم يكن معروفا بحق ولم تكتشف قدراته وإمكاناته فى أثناء حياته ، كما يقال فى المثل : « النبى غريب فى قومه » .

ولكن بعد موته وصدور مؤلفاته وذيوعها بدأت شهرته تطبق الآفاق حتى أصبح أعظم شعراء الانجليز وأقدر كتاب مسرحها ، بل أغلى جوهرة تعتز بها بريطانيا .

كان يطلق تعبير : « أغلى جوهرة فى تاج بريطانيا » على اثنين : الهند ، وشكسبير .

لكن أحد السياسيين القدامى تنبأ بأن الهند سوف تحصل على استقلالها يوما ما ، وأنه لن يبقى لبريطانيا سوى شكسبير.

وسواء كانت الامبراطورية البريطانية - فى سالف أيام القوة والتوسع - أو المملكة المتحدة - كماهى الآن - فإن الشعب البريطانى قد آل إليه ميراث ثمين ، بحيازة شكسبير ، يستطيع أن يباهى به الأمم إذا مااستعرضت كل أمة ماورثته من مفاخر وأمجاد.

لكن شكسبير لم يعد موضع فخر بلاده وحدها ولافخر الناطقين باللغة الإنجليزية فحسب وإنما صار مفخرة الدنيا كلها وأحد عباقرة الإنسان فى جميع الأزمان . . فنى جميع المكتبات ، وبكل اللغات تصطف مجلدات وفصول وكتب مجمعة أو متفرقة تحمل اسم شكسبير ، وكل مسرح فى لندن أو موسكو أو القاهرة أو روما أو أية عاصمة أخرى يعتز أيما اعتزاز بأن يرفع ستاره عن مسرحية من مسرحيات شكسبير. كما أن مجالس الأدب والثقافة تتندر أو تتمثل - فى المناسبة بعد المناسبة - بشىء من شعره أو حكمه أو آية مما خلفه شكسبير للناس فى جميع البلاد ولكل الأجيال.

ومن العجيب أن شكسبير لم يعرف ذلك كله ، فقد عاش متواضعا ومات غريبا ، ولم تعرف حقيقة صنعه وعظمته وعبقريته إلا بعد موته ! ؟ ولما أمعنوا النظر فى تراثه وبهرتهم نفائسه وأدركوا أنهم افتقدوا رجلا نادرا وأودعوا التراب كنزا غاليا . . اندفعت حماسة الانجليز وحسن برهم بعظمائهم يتلمسون الوسيلة لأحياء ذكراه وتكريم عبقريته ، على الصعيدين الرسمى والشعبى . . وقد أخذتهم الحيرة وامتد بهم البحث لأنهم لايجدون الأسلوب الملائم ولا التكريم الذى يفى بقيمة الرجل ، فإن « شكسبير » بدا أعلى من أى تمثال وأغلى من كل تذكار.

لقد فكروا فى الضريح ، والمتحف ، والتمثال . . غير أن شكسبير كان أعظم هامة وأكبر مقاما ، وبقيت مؤلفاته تشكل أعلى بناء يمكن أن يبلغه البصر أو على حد قول الشاعر ملتن :

« ماشكسبير بحاجة إلى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس فى قرن كامل من الزمان لكى تضم رفاته ، وماهو بحاجة إلى أن يسجى فى هرم يبلغ ارتفاعه عنان السماء . . أنت ، يا ابن أغلى الذكريات ماذا يعنيك من هذا الاعتراف الساذج ازاء اسمك العظيم بعد أن أقمت لنفسك من اعجابنا تمثالا لايبلى » .

وتساءل فيكتور هيجو :

تمثال لشكسبير . . كيف ؟

« ان التمثال الذى أقامه لنفسه على قاعدة انجلترا كلها هو خير تمثال . . ليس شكسبير فى حاجة إلى الهرم ، تكفيه مؤلفاته . . ومالذى سيخلده الرخام ؟ ومالذى يستطيعه البرونز . . إن شكسبير هو روح العبقرية العميق » .

. . وقال الفيلسوف الفرنسى هبوليت تن ، عن خاتمة حياة شكسبير ، قبل أن تكشف عبقريته وتذيع شهرته :

« ألا أنها خاتمة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر وليست خاتمة شاعر . . هل نرد ذلك إلى غريزة الانجليز التى ترى السعادة فى حياة الرجل الريفى مالك الأرض تدر عليه ايرادا طيبا ، كريم الأصل الذى بلغ من أسباب الرغد مايجعله متمتعا بين الناس بمكانة واحترام . . إلى مركزه فى عائلته ومكانته فى قومه . »

« . . إن شكسبير كان مثل فولتير رجلا متزنا وان كان واسع الخيال ، يحتفظ برجاحة الرأى مع نشاط شاعريته . . حذرا بتشككه معتدلا لكى يحظى بعدم الاحتياج إلى غيره ، قديرا . . بعد كل مامر بخاطر إنسان ، أى أنه يرى – مع كانديا – أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقة » !

« أما أنا فأعزو ذلك لأمر يدل عليه رأسه المليء المتين ، ذلك لأنه لكثرة ماأنتج خياله المتموج نجا كما نجا « جيته » من مخاطر الخيال المتوهج » .

« إنه أحد رجال جيله العظيم وعصره العظيم . »

كثير من الأدباء مر بخاطرهم سؤال قديم مازال مطروحا حتى اليوم : أيها كان أعظم فى شكسبير : شعره أو تمثيله أو مسرحياته ؟

وكان السؤال صعبا لأنه المرحلة الأولى من حياة شكسبير غير معروفة جيدا ، إذ لم يلتفت إليها أحد فى قريته ولم يتنبه إليها كاتب أو فنان ، فى حاضرة الفنون : لندن .

لم نجد مرجعا ثابتا يقول هل درس الفتى شكسبير شيئا من الأدب ، أو قرأ فى المنطق أو الفلسفة ، أو تأثر بأحد من كبار الكتاب والشعراء السابقين .

ولم يقل لنا أحد هل بدأ شكسبير يكتب أو بدأ بالتمثيل ، وهل هبة التمثيل قادته لكتابة المسرحيات . . وهل كان يقول الشعر خالصا أو يقول الشعر خصيصا للمسرح . .

كثير من الأنباء والمعلومات لم تصل إلى دوائر الفن والأدب ، ولقد كانت فى أشد الحاجة للحصول عليها حتى تكون سيرة نابغة الشعر والمسرح معروفة بأدق

تفاصيلها وكل مراحلها .

وذلك بالنسبة لسيرة شكسبير شيء مؤسف ، برغم أن عصره كان من أزهى عصور بريطانيا وأكثرها ازدهارا بالنسبة للشعر والتمثيل ، فكانت الملكة اليزابيث تقرب الشعراء وتشجعهم وتحضر التمثيليات وتكافىء الممثلين . . ويغلب على ظن الكثيرين أنها كرمت شكسبير وأنه كان أيضا موضع تكريم الراعين للفرق التمثيلية من الأمراء وأصحاب النفوذ .

وقد أوردت بعض المراجع أنه قبل ١٥٩٢ لم يكن نجم شكسبير قد لمع وأنه كان يعانى الانزواء ويكمد فى طلب الرزق بالتمثيل والكتابة ، وأنه كان يعمل كرجل أعمال يجتهد ليحصل على المال الذى يحتاج إليه ، وشيئا فشيئا راحت عبقريته تعمل وتبتدع وهداه فكره إلى روائع الدراما ، فأقبلت المسارح على تقديم أعماله ، وصادفت كتابته هوى فى نفوس بعض المشاهير ، ويروى أن لورد سوذمبتون أهداه ألف جنيه اعجابا بإحدى مسرحياته . . فاستطاع أن يمضى أجازة فى ايطاليا !

وارتبط اسم شكسبير فى تلك المرحلة بمسرح « الجلوب » حيث كان ممثلا أولا وكاتب مسرحياته ومشاركا فى إدارته ، فارتفع صيته وتفجرت مواهبه ، وظهرت براعته فى الأنواع الدرامية المختلفة .

لقد ظهرت لشكسبير مسرحيات تاريخية وكوميديات وتراجيديات لم يكن لها أن تكتب إلا بروح شاعر قادر على الأحساس بالناس وبالأحداث ، أو مصور روحانى ينظر فى الطبيعة الإنسانية ويلتقط من أعماق النفوس مايعتريها من صفات وعواطف ونزعات .

ولهذا خلدت أعماله وأخذت مكانها بين الروائع فى التراث البشرى .

كان شكسبير فى ميعة الصبا يهيم فى فضاء الريف ويتنقل فى أحضان الطبيعة وتتراءى له أشياء غريبة وتحدثه نفسه بخواطر مختلفة ويترنم ويقول شعرا . .

وفى إحدى الروايات عن طفولته أنه كان يعمل فى دكان والده للجزارة ، وأنه كان من عادته وهو يقطع اللحم ويشرح الذبيح أن ترتفع عقيرته ويأخذ يجود فى الغناء بتقليد أصوات وافتعال مؤثرات ، فيلفت الأنظار ويثير تعليقات المشاهدين ببراعته فى التمثيل .

فهو شاعر قبل أن يكون ممثلا ، وهو ممثل قبل أن يكون كاتبا مسرحيًا

ومسرحه هو مسرح الشعر .

وقد هداه خياله إلى أهمية التمثيل ، ولهذا كان يترقب مرور الفرق التمثيلية بقريته فيتفرج عليها ويرنو إلى أن يكون من الممثلين ، ولهذا هرب مع إحدى هذه الفرق المتجولة – كما جاء فى أحد الروايات – أو أنه ظهر فى لندن على باب المسرح يحرس جياد المتفرجين . . فهو على أية حال قد اختار التمثيل مهنة وتعلق بالمسرح مكانا مفضلا ، برغم ماعانى فى سبيل الوصول إليه من مشاق الهجرة والغربة وخلو الوفاض .

وإذا كان الشعر هو نظم كلمات من الصور والموسيقى فقد كان شكسبير الموله بالتمثيل والمفتون بالمسرح هو أقدر من يقدم للمسرح أعمالا فنية صادقة . وبخاصة فى مرحلة كان الشعر فيها هو لغة المسرح فى الأغلب والأعم .

بل لم يكن من هو أقدر من شكسبير الشاعر فى التعبير عن موهبته وخلقه بطريق المسرح . فقد قرن رؤية الشاعر بالفكر الدرامى الذى يحتاجه المسرح ، وزاده رسوخا أنه استخدم الشعر واستخدم النثر فى احياء وترقيته التعبير الدرامى

فى مسرحياته ، فالشعر هو لغة العاطفة والنثر لغة العقل ، وكلاهما لازم للمسرح المتقدم .

لقد استطاع شكسبير بأسلوبه الشعرى أن يعبر عن التجارب الإنسانية تعبيرا لايقوى عليه غير شاعر ، ولاتؤديه سوى الصورة الشعرية . . ولاغرو فالمواقف الدرامية المؤثرة هى التى يجىء التعبير فيها شعرا يستهوى مشاعر النظارة ، وهى أقدر على تعميق مغزى المسرحية .

قدّم شكسبير مسرحيات تاريخية وكوميديا وتراجيديا .

وكان « الإنسان » موضوعه الاساسى فى كتاباته .

وسواء كان مصدر الهامه أسطورة قديمة أم حادثة تاريخية - قديمة أو حديثه أو موضوعا فولكلوريا ، فإنه كان يبحث عن الإنسان والمادة الإنسانية الحية والمعانى الطيبة والدروس المستفادة ، وقد كان قديرا على خلق الشخصيات وعرض الأحداث عرضا متماسكا متكاملا ، أما حواره فيدل على فهم عميق فى المواقف كافة .

وباستعراض المسرحيات التاريخية ندرك اهتمام شكسبير بتاريخ انجلترا : هنرى السادس - ريتشارد الثالث - ريتشارد الثانى - هنرى الرابع - هنرى الخامس .

أما فى الكوميديا ، فلقد بدأ بمسرحية سيّدان من فيرونا ثم عناء الحب الضائع ، حلم منتصف ليلة صيف ، العاصفة ، تاجر البندقية ، جعجعة ولاطحن ، كما تريدها ، والليلة الثانية عشرة .

وبالنسبة للتراجيديا كتب شكسبير روميو وجوليت ، يوليوس قيصر ، هاملت ، عطيل ، الملك لير ، ماكبث ، أنطونيو ، وكليوباترة .

عبقرية شكسبير

لم يلمح أحد من الكتاب ولم يفصح أحد المراجع عن ملامح النبوغ أو مخايل الموهبة فى طفولة شكسبير .

وفى مرحلة شبابه لايكاد يعرف شيء يميزه عن غيره من شباب القرى الذين يعملون أو الذين يركنون إلى الراحة والدعة والاحتماء ببيوت أسرهم ومافيها من عيش رغيد .

والذى عرف هو أنه كان ينظم الشعر – بدون أن نجد نماذج منه – وأنه كان مفتونا بالمسرح بغير معرفة مدى هذه الفتنة .

بل إنه يمكن القول أن شكسبير عاش فى الظل وقللت من شأنه فضيلة التواضع ، أو أنه كان راضيا بماقدر له من حظ ضئيل مكتفيا بما كان يصل إليه من مكافأة أو أجر ، وخاصة قبل سنة ١٥٩٢ .

ويبدو أن شكسبير نفسه لم يدرك فى ضحوة العمر أنه شخص مهم أو أنه يكتب مسرحيات جديرة بالذيوع والانتشار والخلود ، وربما لم تقع أعماله فى أيدى خبراء مقتدرين حتى يقولوا فيها كلمة الحق وشهادة التفوق ، وان كانت بعض الأعمال التى أهداها لأحد الأغنياء قد حققت له مبلغا كبيرا بالقياس إلى ما كان يحصل عليه .

ومات شكسبير متواضعا ودفن من غير احتفال كبير إلى أن اضطر العالم بعد أجيال أن يقيم له من شواهد المجد مايبقى حتى آخر الزمن .

ولم تعرف روائع شكسبير ولم يتحدث العالم عن عبقريته إلا بعد سنة ١٧٠٩

حين بدأ « نيكولاس » فى عمله المأثور بنشر مسرحيات شكسبير ، فأحدث هزة اعجاب واندهاش فى جميع أنحاء العالم ، وأصبح اسم شكسبير فى مقدمة المؤلفين اللامعين وصارت مسرحياته تمثل قسما كبيرا من تراث الإنسانية فى الأدب والكتابة المسرحية .

لقد عرف العالم متأخرا هذا الفنان الأصيل والشاعر الموهوب الذى كان أعظم من كتب للمسرح ، فخاض وراء الحقيقة وكشف عن أسرار النفس البشرية وتنقل بين الأحداث التاريخية والموضوعات الفولكلورية ، وكتب المسرحية التاريخية والملهاة والتراجيدية ، واستخدم الشعر فى أروع مجالاته ، والنثر فى أنسب مواقفه ، وبلغ فى جميع فنون المسرح القمة التى لامرتقى بعدها لراقٍ .

وهو فى جميع أعماله المسرحية لايتكلف ولاينقل ولايتقيد وإنما امتاز بالإنطلاق والتجديد والقدرة على خلق الشخصيات وعرض الأحداث عرضا متماسكا متكاملا ، مع روعة الحوار وتقديم المواقف بسلامة وترابط .

وقد استطاع شكسبير أن يتصل بجميع عناصر الدراما ويستخدمها ويؤلف فيما بينها ، وحيثما استعرضت مسرحياته ألفيت حبكة الحدث وسلامة الشخصيات وروعة الحوار ، كما أنه يضفى على عمله من العاطفة والعمق والإدراك الشعرى مايعد مصدر قوة الكاتب المسرحى الأريب .

وإذا كانت حصيلة علم شكسبير قد واتته من حياة الطبيعة ، ومن طبائع الناس أكثر مما تلقاه فى فصول الدراسة ، فإن قراءاته الخاصة فى التاريخ والفلسفة والإجتماع وما كان يصل إلى فكره من أساطير الأولين وروايات المحدثين قد ساعدت على تكوين عقليته وتعميق شعوره بالإنسان ، وهذه هى السمة

الغالبة على الرواة وكتاب المسرح .

لقد عاش شكسبير سنوات محدودة فى حياته الخاصة ، أما حياته الفنية وأما عمله المسرحى وأما مسرحياته فقد كتبت لها الحياة التى لا تنتهى :

كتبت لها الخلود . . وكتبت له الخلود .

مسرحيات شكسبير

١٥٩٠ – ١٥٩١

١ ، ٢ هنرى الرابع جـ ٢ ، ٣

١٥٩١ – ٩٢

٣ – هنرى الرابع جـ ١

١٥٩٢ – ٩٣

٤ – ريتشارد الثالث

٥ – كوميديا الأخطاء

١٥٩٣ – ٩٤

٦ – تيتوس اندرونيكوس

٧ – ترويض النمرة

١٥٩٤ – ٩٥

٨ – سيدان من فيرونا

٩ – عناء الحب الضائع

١٠ – روميو جولييت

١٥٩٥ – ٩٦

١١ – ريتشارد الثانى

١٢ – حلم منتصف ليلة صيف

١٥٩٦ – ٩٧

١٣ – الملك جون

١٤ – تاجر البندقية

١٥٩٧ – ٩٨

١٥ – هنرى الرابع جـ ١

١٦ – هنرى الرابع ج ٢

١٥٩٨ – ٩٩

١٧ – جعجعة بلاطحن

١٨ – هنرى الخامس

١٥٩٩ – ١٦٠٠

١٩ – يوليوس قيصر

٢٠ – كما نريدها

٢١ – الليلة الثانية عشرة

١٦٠٠ – ١٦٠١

٢٢ – هاملت

٢٣ – زوجات وندرسور المرحات

١٦٠١ – ١٦٠٢

٢٤ – ترويلوس وكرسيدا

١٩٠٢ – ١٦٠٣

٢٥ -- كله خير الذى ينتهى بالخير

١٦٠٤ -- ١٦٠٥

٢٦ -- على القياس

٧ -- عطيل

١٦٠٥ -- ١٦٠٦

٢٨ -- الملك لير

٢٩ -- ماكبث

١٦٠٦ -- ١٦٠٧

٣٠ -- أنطونيو وكليوباترة

١٦٠٧ -- ١٦٠٨

٣١ -- كوريولاناس

٣٢ -- تيمون أثينا

١٦٠٨ -- ١٦٠٩

٣٣ -- بركليس

١٦٠٩ -- ١٠

٣٤ -- شمبلين

١٦١٠ -- ١١

٣٥ -- قصة شتاء

١٦١١ -- ١٢

٣٦ -- العاصفة

١٦١٢ -- ١٦١٣

٣٧ -- هنرى الثامن

٣٨ -- سيدان من كيزمن .



نابليون بونابرت

١٧٦٩ - ١٨٢١

- جنّى الحرب
- رجل الاقدار الذى لايقهر
- سيف فرنسا
- وريث شارلمان وتلميذ بلوتارك وفولتير
- النسر
- فلتة من فلتات الزمن
- اشهر عبقرية عسكرية

حياته فى سطور

● نابليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١) .

● ولد فى أجاكسيو بجزيرة كورسيكا ١٥ أغسطس ١٧٦٩ .

● امبراطور فرنسا : ١٨٠٤ – ١٨١٤

● الابن الرابع لوالده المحامى «كارلو بيونابرت» ووالدته الحسناء «لتزيا راموليينو»

● التحق بالكلية الحربية فى «بريين» مدة خمس سنوات ثم انتقل إلى الأكاديمية الحربية بباريس وتخرج فيها ضابط مدفعية .

● لم يكتف نابليون بالعلوم العسكرية ولكنه كان مولعا بدراسة التاريخ وله ملاحظات ومذكرات منذ فاتحة حياته ، كما أنه قرأ فولتير – ويعتبره أستاذه – و «روسو» و «بلوتارك» . وكان معجبا بشخصيات «شارلمان» و «الاسكندر

المقدونى » و « يوليوس قيصر » .

● خاض الحروب الأهالية فى كورسكا مع الفريق الذى أيد انضمامها إلى فرنسا .

● تولى قيادة المدفعية فى حصار طولون ، وأجلى الانجليز عنها .

● عين قائدا للجيش الفرنسى فى ايطاليا – وهو فى السابعة والعشرين من عمره – وهزم السردينيين فى « ديجو » وعقد معهم صلح « تشيراسكو » وانتصر على النمسويين فى « لودى » وغزا « مانتوا » و « كاستيليون » و « ريفولى » . ثم انتصر على النمسويين فى « أركولا » وعقد معهم صلح « كامبو فورميو » – أكتوبر ١٧٩٧ وعاد بعدها إلى باريس فاستقبله الشعب استقبال الغزاة الفاتحين .

● كان نابليون يحلم بامبراطورية الشرق ، وأيضا بتحدى بريطانيا . فجهز حملة للاستيلاء على مصر فى مايو ١٧٩٨ وكانت حملة تاريخية وعلمية ، وتحرك أسطوله سراً فلم يفطن إليه الأسطول الانجليزى واحتل مالطة فى ٩ يونيو ودخل مصر فى ٢٣ يونيو حيث اشتبك مع المماليك فى عدة وقائع صغيرة ، واحتل نابليون مصر وشرع فى إعادة تنظيمها .

● نجحت البعثة العلمية الفرنسية المصاحبه لنابليون فى وضع خرائط تفصيلية لمصر ومعلومات علمية وثقافية كبيرة الفائدة تضمنها كتاب « وصف مصر » واكتشاف « حجر رشيد » ومعرفة اللغة الهيروغليفية ودراسة تربة مصر وجيولوجيتها .

● أصبح نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ – ١٨٠٤ – عهد القناصل الثلاثة – وكان هو القوة الرئيسية ، يعين الوزراء والقواد والمديرين ، وراح يمهد للحكم المطلق

● قاد حملة ضد النمسويين سنة ١٨٠٠ وحقق انتصارا باهرا فى « مارنجو » ثم فى « هوهنليدن » وعقد معهم صلح « لونفيل » فى ٩ فبراير ١٨٠١ .

● عقد مع انجلترا صلح « اميان » فى ٢٥ مارس ١٨٠٢ ومنح أوربا وفرنسا السلام لأول مرة بعد عشر سنوات من الحروب المتصلة .
● أعلن نابليون الامبراطورية وتوج نفسه فى كنيسة نوتردام – فى حضور البابا « بيوس السابع » – فى ٢ ديسمبر ١٨٠٤ .

● استمرت المناورة بين نابليون وانجلترا ، فأعد أسطولا لغزوها وجيشا كبيرا لقهرها ولكن الأسطول الانجليزى بقيادة نلسون أفقده أمله الكبير بعد معركة « ترافلجار » التى دمر فيها نلسون الأسطولين الفرنسى والأسبانى .

● نجحت انجلترا فى تكوين حلف كبير يضم روسيا والنمسا والسويد ونابلى . . غير أن نابليون – بعد أسبوع من الهزيمة البحرية فى « ترافلجار » – استطاع أن يحرز انتصارا كبيرا على النمسويين فى « أولم » ودخل « فيينا » ثم هزم الجيشين المتحالفين البروسى والنمسوى فى معركة « أوسترليتز » (أعظم معارك نابليون) . وبعدها هزم البروسيين فى « ينا » و « أورشتات » و « فريدلاند » . وعقد صلحا مع الاسكندر الأول امبراطور روسيا فى « تيلسيت » واتفقا على أن لروسيا السيادة فى الشرق ولفرنسا السيادة فى الغرب .

● استولى على اسبانيا . بحصوله على تنازل ملكها شارل يوم ١٥ مايو ١٨٠٨ ، وتنازل ولى عهده فرديناند فى اليوم التالى ! ولكن الشعب الأسبانى ثار وقرر الحرب السرية ضد الفرنسيين .
● عاودت النمسا القتال ضد نابليون فانتصر فى معركة « واجرام » ٦ يوليو سنة ١٨٠٩ .
● فى سنة ١٨١٠ أصبح نابليون أقوى رجل فى أوربا ، وصـــار وريث شارلمان

فى سيطرته على أعظم رقعة من الأرض . . وعين أخوته ملوكا وحكاما على الدول كافة .

● فى سنة ١٨١٢ نقض امبراطور روسيا اتفاقية « تيلسيت » وعلى الفور قاد نابليون ٤٥٣٠٠٠ جندى ، وعبر نهر « نيمن » فارتد الروس وامتدت خطوط نابليون حتى وصل إلى مشارف موسكو ، وحدث اشتباك دموى رهيب فى « بورونيو » كان خصم نابليون هو المارشال «كوتوزوف» وانسحب بعدها الروس ، وأخلوا موسكو وأحرقوها ورفضوا عروض نابليون للصلح . . واضطر نابليون إلى الانسحاب ، فعاد وحوله مالا يزيد عن ١٠٠٠٠ محارب . . لم تكن هزيمة وحسب ، وإنما طامة كبرى .

● فى سنة ١٨٢٣ أحرز نابليون انتصارات محدودة ضد البروسيين فى معركتى « لوتزن » و « بوتزن » محاولا استنهاض الروح المعنوية ، ثم انتصرت قوات التحالف الأوربى على نابليون فى « معركة الأمم » ١٦/١٩ أكتوبر ١٨١٣ – حتى تم القضاء على الجيش الكبير والاستيلاء على باريس .

● فى يوم ٦ أبريل ١٨١٣ تنازل نابليون عن العرش .

●بمعاهدة « فونتنبلو » – ١١ ابريل ١٨١٣ – أصبح نابليون امبراطورا فى جزيرة « البا » وفى معيته ٤٠٠ حارس وفى جعبته ٢ مليون فرنك ، وكان قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره ، وقد أمضى نابليون فى « البا » مائة يوم .

● طار النسر من القفص واستمر يقفز من عش إلى عش حتى حط على أبراج كنيسة نوتردام فى باريس يوم ٢٠ مارس .

● استقبل الشعب والجيش بطل فرنسا وامبراطورها بحماس بالغ ، وسرعان ماجهز جيشا لدفع أعداء فرنسا عن حدودها ، وأحرز انتصارا سريعا فى معركة

« لينى » ببلجيكا .

● خاض نابليون أقسى معاركه وآخرها « ووترلو » يوم ١٨ يونيو ١٨١٥ وقضى بقية سنوات عمره أسيرا فى جزيرة « سانت هيلانه » (١٨١٥ - ١٨٢١) .

● مات نابليون فى الساعة ٥,٤٩ مساء ٥ مايو ١٨٢١ ، وهو فى الثانية والخمسين من عمره . وقد وضعوه فى بدلة الميدان التى خاض بها معركة مارنجو . .

وكانت آخر كلماته :

أطلب أن يستقر رفاتى على شاطىء السين بين الشعب الفرنسى ، الذى أحببته كثيراً . .

انى أموت قبل أوانى . . لقد قضى علىّ الانجليز . .
يارب . . الأمة الفرنسية . . ابنى . . الجيش .

كتب مشاهير الكتاب والعسكريين والمؤرخين مئات الكتب عن نابليون فى نواح متعددة من حياته الحافلة ، وقد ذكروا عنه الكثير من المزايا والخصائص والملاحظات ، وفيما يلى أهم ماأجمعت عليه عدة مراجع :

١ - كان نابليون ضئيل الجسم ، طول قامته ١٦٥ سنتيمترا ، ولكن كانت له طاقة هائلة على العمل الشاق ، وكان عقله يعمل بسرعة خارقة وقلبه يخفق بالحب والمجد .

٢ - من الأوصاف التى أطلقت عليه : جنى الحرب - الساحر - المعجزة - رجل الأقدار الذى لايقهر - سيف فرنسا - وريث شارلمان - تلميذ فولتير -

النسر - أشهر عبقرية عسكرية - فلتة من فلتات الزمن . .

٣ - لنابليون دون باقى القادة والحكام العظماء أكبر عدد من الصور والرسوم والتماثيل والمقطوعات الموسيقية ، وفى مقدمتها السيمفونية السابعة لبيتهوفن .

٤ - كان طموحا تمتد أحلامه إلى مملكة شارلمان وامبراطورية الاسكندر وانتصارات يوليوس قيصر.

٥ - كان رجل حرب بمعنى الكلمة . . يعرف صنعته جيدا وينظر بفراسة فى ساحة المعركة ، ويؤثر فى جنوده ، ويسرع فى تقدير الموقف ويحدد بسرعة فائقة وقت العملية الحاسمة ومكانها .

٦ - يعد نابليون ابن الثورة الفرنسية وقد أوصلته إلى كرسى الحكم ولكنه توّج نفسه امبراطور على الفرنسيين ؛ ولم يكن مقتنعا بالانتخابات والبرلمان والرأى العام . . وإنما كان مقتنعا بنفسه رأسا للدولة وقائدا للجيش وبطلا للشعب .

٧ - كان أكثر القادة فهما وتقديرا لعامل الزمن ، يصل إلى أرض المعركة الفاصلة قبل العدو . ويعبر قمة « سان برنار » قبل أن يهبط عليها الجليد . . وكان يقول : « قد تروننى أخسر معركة ولكننى لا أفرط فى دقائق » .

٨ - كان نابليون واسع الثقافة ، فالى جانب معلوماته العسكرية الغزيرة قرأ مبكرا : بلوتارك وفولتير وروسو ، وحفظ التاريخ الحربى لمن سبقه من القواد العظام . وعندما ذهب إلى مصر اصطحب بعثة علمانية لدراسة مصر وكان مولعا بتنظيم الدولة وسن القوانين المناسبة لمجتمعها ، ولعل الأثر الذى تركه متفوقا على جميع معاركه هو : قانون نابليون .

٩ - كان فى حياته الخاصة محبا ذواقة ، كان يعبد جوزفين - برغم ثقته فى

عدم أمانتها – وتزوج مارى لويز لتتنجب له وريثا لعرشه ، وجعل أخوته ملوكا على دول أوربا ، ورفع جنوده الشجعان إلى رتبة الجنرال والمارشال .

١٠ – ترك نابليون كثيرا من المذكرات والأقوال المشهورة والحكم المأثورة التى تردد حتى اليوم فى الأكاديميات العسكرية ، وفى المجالس والدوائر الثقافية والعلمية . كما ترك كثيرا من الرسائل الغرامية بنفس الحرارة التى كتب بها المذكرات العسكرية .

رجل الأقدار الذى لا يقهر

هو الوصف الذى أطلق على نابليون ثم أطلق على رجل واحد بعده هو « أدولف هتلر » ، وقد أنهى كل منهما حياته بهزيمة ساحقة .

لكن لم يحدث فى التاريخ أن رجلا تحكم فى شئون جيشه وبلده وأبناء جيله ، وأحدث تأثيرا بالغا فى مصاير الأجيال التى جاءت بعده كما فعل نابليون ، فهذا الضابط الصغير الذى امتاز بقوة شخصيته ومضاء عزيمته وطموحه الهائل ، قد حملته عبقريته إلى مقعد القيادة وإلى كرسى الحكم فصار قائد فرنسا وامبراطورها ، وجعل أوربا مثل طاولة الشطرنج يحرك عليها الجيوش ويلعب بالقواد والملوك ، ويصبح بيده قرار الحرب أو السلم لأوربا كلها وللعالم بأسره . . فإذا واتته الهزيمة النهائية فى « ووترلو » ثم صرعته المنية فى منفاه « بسانت هيلانة » نراه وقد انتقلت مناقبه إلى أذهان الناس فتعيش ذكراه جيلا بعد جيل ، ويقترن اسمه بفرنسا حتى اليوم ، وبالمجد العسكرى ، وبالقانون . . !

ولد نابليون فى ١٥ من أغسطس عام ١٧٦٩ فى أجاكسيو ، بجزيرة كورسيكا وتلقى علومه العسكرية فى الكلية الحربية فى بريين ثم الأكاديمية الحربية

فى باريس ، وأصبح ضابطا فى المدفعية معروفا بالنشاط والكفاية وعندما نشبت الثورة الفرنسية تفتحت شهيته ونشطت أحاسيسه ، وكان معجبا بالثورة وأفكارها ولكن لم تعجبه الفوضى والجرائم الشنعاء الظالمة التى ارتكبت باسم الحرية والاخاء والمساواة .

وعندما واتته الفرصة سارع باقتناصها ، وأصبح الكابتن بونابرت قائدا للمدفعية فى حصار « طولون » التى كانت قد شقت عصا الطاعة وتحالف معها الأسطول الانجليزى .

ووقف الضابط الأسطورى ينظر إلى ساحة المعركة ، وقدر الموقف بسرعة فائقة ووضع خطته ، ليس للمعركة وحدها ولكن لمعارك المستقبل كلها . . قال :

« الآن أصبح طرف الحبل فى يدى ، وسأحتفظ به جيدا » .

ووضع خطة فيها الكثير من المغامرة ، لاترضى ميول الجنرالات . .

« سأفصل بين الثوار وحلفائهم الانجليز والأسطول . . سأوجه مدفعيتى بين البر والبحر ثم أقذف المدينة بوابل من القنابل . . ويقع الفأر فى المصيدة » .

وقال نابليون : ان الوقت هوأهم شىء فى المعركة .

وقال الجنرالات فى باريس عن تلك الخطة : هراء .

ونجح الهراء . . وانتهى الموقف فى ليلة واحدة كما قدّر الضابط الألمعى ، وانتصر فى أول معركة له وأصيب برصاصة فى قدمه .

وقال التاريخ : هذا نجم عالمى جديد فى سماء الحرب .

وقال نابليون : سأشق طريق بحد السيف .

الصبر . . والشجاعة :

أيها الجنود :

« انكم مغلوبون على أمركم مظلومون فى طعامكم ولبسكم ورواتبكم . . لقد وعدتكم الحكومة بوعود كثيرة ولكنها لاتفعل شيئا من أجلكم . . ان صبركم وشجاعتكم قد أولتكم الشرف ولكنها لم تمن عليكم بخير . .

إننى سأقودكم إلى أغنى وديان الدنيا ، إلى الأقطار الخصبة والمدن العظيمة حيث المال والمجد والشهرة . . »

بهذا الخطاب المدوى الذى ألقاه نابليون على جنود نصف عراه جوعانين ، ارتفع الستار عن أول فصول الحروب النابليونية لتقرير مصير فرنسا والعالم عشرات السنين .

فى تلك السنوات الحافلة بالانتصارات الباهرة والهزائم المريرة لفرنسا وغيرها من دول العالم كان نابليون البطل الأول على مسرح التاريخ ، كان القائد الملهم والحاكم القدير والمشرع الحصيف . . وإذا كانت سيرته العسكرية قد انتهت بمأساة « ووترلو » فأن أعماله التنظيمية والقانونية بقيت حتى يومنا هذا ، وستبقى بعدنا شاهدة بنبوغه وعبقريته .

أصبح نابليون جنرالا فى عام ١٧٩٦ وقاد حملة تاريخية ضد النمسا وإيطاليا وهو فى السابعة والعشرين ، واستطاع أن يبث فى جنوده روح الغلبة والفخار وأن يهز جيوش أوربا . . فأين كانت تكمن قوة نابليون ؟

يقول المؤرخ « أميل لودفيج » :

١ – أن أول أسرار نجاحه : شبابه وحيويته .

كان نابليون يركب جواده ساعات عديدة بلا اعياء ، وله قدرة على النوم فى أية لحظة ، وله معدة تهضم أى طعام ، وأيضا عنده الفكر الثاقب الذى يدهم أى مشكلة ويهدم أى عقبة كأداء . .

٢ – ان الثورة ضربت بالروتين عرض الحائط ، فجعلته جنرالا ، فالثورة «تقدر الناس بأعمالهم وليس بسنهم ، ولا أقدميتهم ! »

٣ – ان خصومه فى المعركة كانوا أقل منه فى كل شىء :

« الأرشيدوق شارل الأرستقراطى الرقيق الذابل ، كيف يتحمّل المشاق كما يتحملها ذلك الكورسيكى العنيد .

« جنرال يوليو – القائد النمساوى – الذى كان فى الثانية والسبعين على حين كان نابليون ابن السابعة والعشرين . »

« جنرال «كولى » كان مريضا بالنقرس ويحملونه على نقالة فى ميدان القتال » .

« جنرال « الفنزى » كان فى الخامسة والستين . يأخذ نفسَه بصعوبه » .

« جنرال « ورمزر » كان « أطرش بطىء الحركة قليل التمييز . » .

ماذا كان يستطيع هؤلاء القدامى أمام قائد شاب دائب الحركة دائم النشاط يركب جواده عشرين ساعة وينقل مقر قيادته كل يوم ويعتمد على جنرالات شبان ، ويقول : الوقت أهم شىء .

كان أكبر معاونى نابليون سناً الجنرال المحنك « بيرتييه » فى الثانية والأربعين من عمره ، وقد استبقاه لأنه كان خبيرا فى شئون الأقطار الأوربية وساحات القتال فيها ، والجنرال « مسينا » الذى خدم ١٤ سنة فى الجيش حتى وصل إلى درجة « باشجاويش » فجعله نابليون بعد أسابيع قليلة جنرالا . . كان نابليون

لايرقى إلا الضابط الشجاع .

لقد رقى نابليون أحد الجنود رماة القنابل – بعد اشتراكه ببسالة فى ثلاث معارك – إلى رتبة العقيد ، واستغنى عن جميع جنرالات النياشين والمكاتب .

٤ – ان نابليون كان يعد نفسه « قائد جيش الشعب » . . وهذا تعبير ثورى يعجب الجنود ويرضى الجماهير . . أما جيوش خصومه فكانت جيوشا محترفة ومختلفة . . تنطق بست لغات .

كان الجيش الفرنسى ينوب فى المعركة عن ثلاثين مليون مواطن فرنسى ويحارب من أجل حريتهم ومن أجل مبادىء الثورة الفرنسية ، ويصد قوات الملوك الذين كانوا يحيطون بفرنسا ويقاومون الثورة . . وأصبح على فرنسا أن تحمى حدودها ومبادئها . . هكذا وجد نابليون دوره على مسرح التاريخ .

الجيش أولا . . ثم العدو :

قبل أن يتحرك نابليون لغزو خصومه كان قد استقر فى رأيه تهيئة جنوده للحرب ، فقد كان جيشه – قبل قيادته – غير معد للقتال لاماديا ولامعنويا ، وكانت هناك ثغرة بين الحكومة والجيش ، وكان الجيش يعانى من الأهمال والاملاق ، والحكومة لاتقدم له احتياجاته مع المعدات والأدوات والملابس والطعام ، فحل به الضياع وخيم عليه اليأس . . غير أن رجل المعجزات استطاع أن يقود هذ الجيش وأن يدفع عنه عوامل الضعة والاحتقار واليأس ، وأن يبث فيه الشجاعة ، وأن يحبب إليه الغايات العليا التى فى مقدمتها النصر والفخار . . ان نجاح نابليون الأكبر لم يكن فى نظراته الاستراتيجية ولا فى خططه التكتيكية ، ولكن فى أنه استطاع أن ينقل جيشه من جيش مرتزقة جهلة

إلى جيش أحرار متوثبين متعطشين إلى النصر والعلاء .

ثم نظر نابليون إلى ساحة المعركة القادمة ، وراح يخاطب الشعب قبل أن يحارب القوات التى تستعد لمحاربته . . لقد رأى نابليون أن ينقل آراءه وأفكاره إلى المواطنين ويحدثهم عن الحرية وعن الأمجاد القديمة . . لقد راح يلقى المنشورات قبل قذائف المدافع ، ويقول لأهالى إيطاليا أنه جاء يخلصهم من الذل ويحررهم من سيطرة آل « هابسبورج » وملوك « سردينيا » والدوقيات والاقطاعيات الأخرى . . وبذلك تهيأت الأقطار والمدن والجموع لاستقباله وترسم لها الأمل فى هذا المنقذ . . وهكذا اجتازت مبادىء الثورة الحدود قبل أن يجتازها الجنود . . وكان عشاق الحرية وطلاب المساواة ينتظرون : نابليون .

ولما كان نابليون من أصل إيطالى ، ويحمل اسما ايطالياً فقد أحبه أهالى إيطاليا ولم يعدّوه غازيا فرنسيا بل رجل حرية ومساواة واخاء ، وكانت خطابات نابليون تحمل هذه المبادىء . . وكان لايفتأ يذكرهم بأمجاد أثينا واسبرطة وروما .

قال نابليون لجنوده فى بعض « أوامر اليوم » .

« أقسموا أن تحافظوا على الأهالى الذين سنحررهم ، فلاتكونوا سوط عذاب ، انى وجميع جنرالاتى لانقبل قيادة جيش لايهتم بالشرف ولايعتز بالنظام ولايتمسك بالضبط والربط . » .

وأعطى نابليون أوامره بإعدام من يخفى شيئا منهوبا ومن يرتكب عارا أو يتسبب فى فضيحة .

كان نابليون يفهم رجاله ويحسن الحديث معهم ويقدر على التأثير فيهم . . كذلك كان يتحسس مشاعر خصومه ويحس بمايرضيهم ومالا يرضيهم ، ولذلك

عرف لغة مشاعرهم وعرف كيف يخاطب وجدانهم .

ان أغلب الانتصارات التى أحرزها نابليون . . أحرزها بكلمات حماسية .

أنظر إلى خطابه لجنوده فى « ميلانو » :

« أيها الجنود . . لقد انقضضتم كالسيل الجارف من مرتفعات « الابينينى » فصارت « ميلانو » لكم . . أننا أصدقاء الأهالى . . هؤلاء سلالة « بروتس » و « سيبيو » والآخرين من الأبطال الذين نتخذهم مثلا عليا . . سوف نعيد بناء العاصمة ونقيم تماثيل الابطال ونوقظ الشعب الرومانى من نومة العبودية التى عاش فيها عدة قرون . . تلك هى ثمرات انتصاراتكم ، وعندما تعودون إلى أرض الوطن سوف يشيرون فى الطريق على أى واحد منكم قائلين :

« لقد كان مع الجيش فى إيطاليا » !

فهل سبق لقائد أن وجه مثل هذه الكلمات لجنوده . . للأهالى . . للأصدقاء . . للخصوم ؟

ان نابليون كان يعرف كيف يخاطب الناس ويستولى على قلوبهم ، وذلك بمراعاة شعورهم عند عرض أهدافه ووجهات نظره . . كان يفضل الاقناع على الاخضاع .

واستطاع بونابرت بسن القلم أن يؤكد الانتصارات التى أحرزها بحد السيف . .

الجيش يقول !

سارت حملة نابليون فى إيطاليا على طريق جبال الألب الشاهقة ، وكان جيشه – كما قدمنا – يعانى قلة المؤن الذخيرة والأدوات – بيد أن قوته المعنوية

كانت غالبة ، وما إن بدأ المعركة حتى فرق شمل أعدائه فى «مونتنوت» – ابريل ١٧٩٦ .

ومازال بالسردينيين حتّى نفضوا تحالفهم مع النمسويين ورضوا بالتخلى عن « نيس » و « سافوى » . ثم واجه نابليون خصمه القائد النمسوى « بوليو » الذى لم يستطع أن يقف فى وجه العاصفة فانسحب مسرعا تاركا سهل « لومبارديا » مفتوحا ، وواصل نابليون تقدمه نحو « ميلان » ثم « منتوا » . . وقبل أن يبلغ « فينا » طلب النمسويون الهدنة .

وكانت حكومة « سردينيا » قد تباحثت مع حكومة فرنسا حول مشروع صلح ومعاهدة . . وأرسلت الحكومة الفرنسية المشروع إلى نابليون فكتب إلى حكومته فى باريس يقول :

« تلقيت مشروع المعاهدة مع « سردينيا » . . وقد وافق عليه الجيش » ! ؟

. . . وصعق رجال الحكومة من هذا الأسلوب وأحسوا بالخطر الماثل وراء تلك العبارات الجديدة على أسماعهم . . وقال خصوم الجنرال فى باريس : «ينبغى . . من أجل هذا الخطاب . . أن يقف هذا البطل الصغير أمام جماعة ضرب النار» ؟ !

ولكن لم يجرؤوا على هذا الاتجاه إذ أن شهرة البطل المنتصر قد عمّت فرنسا وملأت أبناءها فخارا . . وأصبح نابليون بمنجاة من البطش .

واستمر نابليون يفكر بحذق ويعمل بسرعة . .

وكانت معركته التالية . . « لودى » .

لقد أحرز نصرا مؤزرا على القوات النمساوية مستخدما « المفاجأة » ومهما كانت أهمية الانتصارات العديدة والمثيرة التى أحرزها نابليون فيما بعد ، فإن

« لودى » هى التى أثبتت صحة نظراته وكشفت عن قدراته وأعطته الأمل فى معاركه المقبلة . . لقد اكتشف نابليون طريقه وتحقق من أن المجد يسير فى ركابه .

التقت الأحلام بالحقائق . . واختلطت الخطط المبهمة بالوقائع العملية . .

. . . « اننى تنبهت – بعد معركة « لودى » – إلى أننى إنسان ملهم . . ويومها كان بداية تحقيق آمالى فى أن أقوم بأعمال هائلة . . وقد كان يبدو لى ذلك كأنه مجرد أحلام » ! ؟

نعم . . كان يدور برأس نابليون الأمل فى غزو قارتين . . أو ثلاث ! على حين كان يدور فى رأس المديرين فى باريس أن يقف نابليون عند حده ، ولا يأخذ صولجان المجد فى يده وحده . .

وصدر القرار فى باريس بأن ينضم الجنرال «كيلرمان» إلى نابليون ، فيتشاركا فى الحملة . . ويتقاسما الثمرة !

وأدرك نابليون المناورة . .

كتب إلى حكومته يقول بصراحة أنه يفهم أنها تضع العراقيل فى طريقه . . « قد يكون الجنرال كيلرمان قائدا ممتازا يستطيع أن يقوم بعمل طيب ولكن سوف لانتفق معا . . اننا معا سنعمل شيئا رديئا ! ؟

لا يمكن أن تكون المسئولية مجزأة . . اننى أحرر بشجاعة كلماتى هذه التى قد تفسر على أنها من نتاج المطامع والأثرة . . لا . . إننى لاأستطيع أن يشاركنى العمل قائد يعد نفسه أحسن جنرال فى أوربا !

أيها السادة : ان قائدا عاديا أفضل من قائدين عظيمين !

وأرسل نابليون رده الحاسم : لا

ولم يضع وقتا ، ففى اليوم التالى تحرك إلى ميلانو ، وهناك استقبلته الجماهير

بالحفاوة ، وخطب فيهم قائلا :

« ستصبحون أحرارا وفى أمن أكثر من الفرنسيين أنفسهم . ستكون ميلانو عاصمة الجمهورية الجديدة ذات خمسة الملايين من البشر ، وسأختار منكم خمسين رجلا ليتولوا الحكم باسم فرنسا . . وسيكون لكم خمسمائة مدفع . . وصداقة فرنسا .

خذوا عنا قوانيننا ووفقوا بينها وبين أنظمتكم وكونوا راشدين ومتعاونين حتى تسير الأمور سيرا حسنا . . هذا ما أريده لكم » .

كانت الحكومة فى باريس تحتفل بالنصر ، وتتآمر على القائد المنتصر . . كانوا يفكرون فى ازاحته قبل أن يأتى إلى باريس وفى يده صولجان القوة . . ؟ « إنه إذا عاد إلى باريس غازيا فاتحا فسوف يدفعنا بيد واحدة ، ويستولى على الحكم باليد الثانية » ! !

كان نابليون يرى الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية والمالية فى أثناء الحملة حتى لايعوقه عائق . . « يجب أن توضع الثقة كاملة فى قائد واحد لايتدخل أحد فى عمله . . ان أمامى أشياء كثيرة لابد من أدائها بجيش مكتمل الحاجة . . أريد أن أقود جيشى فى عمليات هجومية هائلة وأحافظ على خطوط مواصلاتى التى تمتد باستمرار ، وأستولى على « جنوة » و « فينيسيا » و « توسكانى » و « روما » و « نابلى » وأثبت انتصاراتى هنا وهناك . . لذا فلابد من توحيد جميع الامكانات فى يدى .

إذا لم يكن الجنرال هو مصدر القوة فإن الجيش ينحدر الى الهاوية .

باسم ثمانين ألف رجل أحذركم ! وأقول لكم أن الوقت الذى كان حفنة من المحامين والمتشدقين يستطيعون فيه السيطرة على مصاير الآف الجنود وسوقهم

إلى المذبحة . . هذا الوقت انتهى ولن يعود » .

وهكذا ، باسم الجيش انتصر نابليون .

وباسم الجيش وافق على الهدنة ، وتم عقد الصلح «كامبوفورميو» فى الأول من أكتوبر ١٧٩٧ وبه تخلت النمسا عن جميع الأقطار التى كانت تحتلها فى إيطاليا ، واستمر نابليون فى رحلة النصر . .

لقد استطاع نابليون أن يحقق أول أحلامه بغزو إيطاليا ، وقهر النمسا . . وقد تأكد أن فى مقدرته تحقيق الأحلام . كان يرسل بصره إلى بعيد فيرى القسطنطينية ، وتشتعل رغبته فى أن يصبح مالكا لرقعة من الأرض أكبر مما كان يملكه آل هابسبورج .

« إننى ذاهب إلى الشرق للاستيلاء على « مالطة » و «كورفو» و « مصر » .

ترى ، هل أراد بذلك أن يضايق الانجليز ويقضى على سيادة انجلترا على البحر المتوسط . . أو أنه كان يرنو إلى امبراطورية الاسكندر الأكبر . . أو أراد نابليون الهدفين معا ؟

لقد سبق أن كتب نابليون فى مذكرات صباه عن فتوحات الاسكندر :

« لما رأى الاسكندر الأكبر مصر الواقعة بين البحرين ، أو على الأصح بين الشرق والغرب ، اعتزم أن يجعلها حاضرة ملكه العالمى ويتخذها مركزا للتجارة الدولية . . ذلك ان امام الفاتحين قد فطن إلى أنه إذا أمكن تجميع كل فتوحاته فى دولة واحدة فإن مصر هى واسطة العقد فى ربط أفريقيا وآسيا بأوربا . . »

وهكذا مضى نابليون على طريق الاسكندر .

وتحركت الحملة من طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ .

وكان نابليون فى طريقه إلى الشرق يقرأ : رحلات فى مصر – أبطال

« بلوتارك » – كتب هوميروس – معارك الاسكندر ومعارك قيصر.

وعلى مشارف صحراء الجيزة وقف نابليون أمام « أبو الهول » : العين فى العين والصمت متبادل . . ولكن فكره كان يقول :

« هنا وقف الاسكندر ، وهنا وقف قيصر ، وهاندا فى ذات المكان الخالد . . أيها الجنود إن أربعين قرنا تطل عليكم . . »

لم يكن غزو مصر عسيرا ، وهو لم يأت لها بالسيف وحده ، ولكنه جاء أيضا بالعلماء لاعادة تنظيم البلاد ودراسة تاريخها ورسم خرائطها وتفهم مجتمعها ونشر المبادىء والثقافة الفرنسية بين أهلها . .

ولكن سحابة القلق كانت تخيم على فكر نابليون . . واسمها عنده : الأسطول الانجليزى .

وإذا كان قد غافلهم وشق طريقه فى البحر فى غفلة الأسطول فقد كان فى استطاعتهم محاصرته ، وقد حدث مابرق فى خاطره وأقبل الأسطول الانجليزى فدمر السفن الفرنسية فى معركة أبو قير . . وقال نابليون : « اذن ، فقد أصبحنا محصورين فى مصر » !

ولكنه فكر بسرعة : سأترك هنا خمسين ألف جندى ، وآخذ معى ثلاثين ألفا وأتحرك بسرعة . . إلى الهند ! !

يعنى ضربه الانجليز هنا . . وسيضربهم هو . . هناك .

ولكن قطع عليه حبل تفكيره إعلان تركيا الحرب على فرنسا وارسالها قوات إلى سوريا وأخرى إلى الاسكندرية . . أى أن تركيا وانجلترا قررتا العمل معا ضد نابليون فى مصر.

وتحركت البوصلة الحساسة التى تقيم فى عقل نابليون ، فوضع خطة تقضى

بالتحرك إلى الشام لمباغتة الأتراك . . وخرج إلى العريش ، ومنها زحف على غزة ويافا ، ثم قاومته عكا فأقام حولها الحصار لكنها كانت « بندقة صعبة الكسر » . ولم يكن معه معدات الحصار اللازمة ، واضطر للتحول عنها والعودة بسرعة إلى مصر ليواجه القوات التركية التى نزلت فى الاسكندرية . . وفى يوم ٢٥ يوليو ١٧٩٩ التقى بتلك القوات وبدد شملها فى معركة خاطفة « أبو قير » . .

ونظر الجنرال « مورو » باندهاش واعجاب إلى قائده نابليون وقال :

« أيها الجنرال . .

أنك عظيم كالدنيا . .

ولكن الدنيا صغيرة بالنسبة لك . . »

السيف . . والروح :

اضطرب حبل السلام فى أوربا وتحركت المؤامرات ضد فرنسا – انتهازا لوجود نابليون بعيدا – وتحالفت انجلترا وروسيا والنمسا وبدأت الاشتباكات فى نابولى وسردينيا . . وبلغت تلك الأنباء نابليون فقرر العودة على الفور ، وكانت فرنسا بحاجة إلى سيفها . . وكان هو يتطلع إلى تغيير النظام الذى جرّ على فرنسا الضعف والمهانة والانحلال الداخلى ، وقد استطاع بالحيلة والتلويح بالقوة أن يقضى على الجماعات المتمركزة فى مراكز القوة ، فأحدث « انقلاب برومير » وبمقتضاه استقالت حكومة الإدارة وتدخل الجيش فقضى على كل معارضة فى مؤتمر الخمسمائة . . وانتقلت السلطة إلى يد ثلاثة قناصل ينتخبهم الشيوخ لمدة عشر سنوات : « سييس » و « روجيه » و « نابليون » . . على أن يكون نابليون هو القنصل الأول الذى يعين الوزراء والقواد ورؤساء الإدارات الحكومية .

كان نابليون يفكر بعقل السياسى ، ويحس مسئولية رئيس الدولة .

قال : ان الذى يعجبنى أكثر من أى شىء فى هذه الدنيا هو النظام .

« النظام هو روح العمل . . توجد فى العالم قوتان : السيف والروح ولكن السيف لايلبث أن ينحنى أمام الروح . » .

كان على نابليون فى تلك المرحلة إعادة تنظيم البيت من الداخل وكان عليه أيضا حماية الحدود من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر .

وشرع فى العمل على الجبهتين معا .

يد تحارب . . ويد تنظم .

أما فى جبهة القتال : فقد تولى معاقبة النمسا التى تحولت عن عهدها ودفعت قواتها لطرد الفرنسيين من إيطاليا . . وهذا كان ميدانه المفضل ! وعلى جناح السرعة عبر بجيشه جبال الألب ، ومرق من قمة « سان برنار » قبل أن يسبقه إليها الجليد . وهبط على سهول « لمبارديا » وفاجأ النمسويين فى « مارنجو » – إحدى معارك التاريخ – كذلك أحرزت قواته نصرا مؤزرا على ثرى ألمانيا فى معركة « هوهنليدن » . . وسارعت النمسا إلى طلب الهدنة ، وتم توقيع معاهدة « لونيفيل » .

ثم جرت اتصالات دبلوماسية بينه وبين انجلترا انتهت بقبول صلح « اميان » وسحب قواته من مصر واعطاء العالم فترة سلام .

وانتقل نابليون إلى الميدان الداخلى فأجرى الإصلاح فى فرنسا . . وأثبت « رجل القرن الثامن عشر » أنه رجل حرب وحكم فى آن معا . وصدق الشعب على تعيين نابليون قنصلا مدى الحياة . . وله أن يختار خليفته أيضا !

وبعد سنتين هلل الشعب وكبر احتفالا بإعلان الامبراطورية وتتويج نابليون

امبراطورا للفرنسيين .

وفى يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ تم الاحتفال التاريخى فى كنيسة « نوتردام » وبحضور البابا « بيوس » ، وكان من المقرر فى نظام الاحتفال أن يركع نابليون أمام قداسة البابا ليمنحه البركة ويضع على رأسه تاج فرنسا . . ولكن نابليون – المتمكن من غريزة المفاجأة – نهض فى اللحظة الأخيرة ، وأخذ التاج من البابا . . وتوج نابليون نفسه ، ثم تناول تاج الامبراطورة ووضعه بيده على رأس جوزوفين .

وهكذا توّج نابليون نفسه على النحو الذى حدثنا به أمير الشعراء شوقى :

مُجلس التاج على مِفْرقه بيديهِ لا بأيدى المجلسين

لا جديد تحت الشمس :

وصل ضابط المدفعية الكورسيكى الشاب إلى عرش فرنسا ووضع التاج بيديه على مفرقه . . ومع هذا فلم يبد أنه حقق غاياته وانتهى من أحلامه ! !

قال نابليون :

« لقد جئت إلى الدنيا بعد فوات الأوان . .

ولم يعد هنا شىء عظيم أفعله ! !

ماأبعد المسافة بينى وبين العظماء الذين صاروا فى التاريخ . .

ان الاسكندر غزا آسيا وأعلن أنه ابن الآله « جوبيتر » ، وأمّن العالم على كلامه – عدا أمه ديانا ومعلمه أرسطو . .

أما أنا . . فإذا أعلنت نفسى ابنا لأحد الآلهة فإن زوجة أى صياد سمك سوف تضحك وتهزأ بى ! ؟

اذن . . عند نابليون : لانهاية للطموح .

ولقد كان حلمه المتكرر هو : امبراطورية عظمى يرفرف عليها علم السلم . .

ولكن كان يفسد عليه حلمه . . الأسطول الأنجليزى .

وأدرك أنه لن يحقق حلمه إلا إذا هزم انجلترا .

وفكر فى أسلحة شتى منها الحصار الاقتصادى ، ومنها عبور القناة !

. . لكن « الأدميرال نلسون » قضى على كل أحلام نابليون فى غزو بريطانيا ، فقد مكر بالاسطولين الفرنسى والإسبانى وأجهز عليهما بضربة قاضية فى « ترافلجار » .

وأخذت فكرة السلم تجثم على فكر نابليون ، وقدرّ أن يحققها بحوار ورسائل ومحاولات سلمية .

كان الاسكندر الأكبر هو المثل الأعلى لنابليون .

إلا أنه لم يعد مناسبا له بعد أن أصبح إمبراطورا .

وأخذ نابليون يفكر فى شخصية أخرى . . شارلمان العظيم ، واتجه إلى « اكس لاشابل » وزار قبر شارلمان ، وعاد يقول :

« لن يكون هناك سلم مقيم إلا إذا كانت أوربا كلها فى يد امبراطور يجعل من ضباطه ملوكا عليها . ان امبراطورية شارلمان ستعود من جديد . . حقا ، لاجديد تحت الشمس » !

ملكان . . فى كمين :

لم تكن انجلترا فى غفلة عن أفكار وخطط نابليون ، ولم تنخدع لذلك الهدوء المصطنع المخيم على أوربا ، وازداد انشغالها بما كان نابليون يقوم به من

اصلاحات فى مرافق فرنسا وتدعيم لقواها المادية والمعنوية وحفز شهيتها إلى معاودة الغزو والفتوح .

وقد استطاعت انجلترا بدهائها ومناوراتها أن تقيم حلفا جديدا يضم روسيا والنمسا والسويد . . وعاد شبح الحرب يلح على نابليون ويهدد جيوش وشعوب أوربا بمرحلة دامية .

ولم ينتظر نابليون حتى يؤخذ على غرة وانما تحركت قواته على الفور والتقى بالجيش النمسوى فى معركة « أولم » التى أحرز فيها انتصارا باهرا بفضل عنصر المفاجأة الذى يحسن استخدامه . . ولقد دعمت معركة « أولم » مركز الامبراطورية مثلما ثبتت معركة « مارنجو » قدمه من قبل فى عهد القنصلية . . ثم انضمت فلول جيش النمسا المنهزم إلى القوات الروسية المتقدمة إلى الميدان فى « اوسترلتز » واستطاع نابليون بحركة بارعة أن يدمر خطط العدو ، وأن يحرز انتصارا مدويا جعل « وليم بت » رئيس وزراء بريطانيا يقول :

« فلنطو خريطة أوربا إذ لم يعد لنا بها حاجة لعشرة سنوات على الأقل » !

وقد ترنم أمير الشعراء شوقى ببطولة نابليون فى تلك المعركة التاريخية بقصيدة عصماء جاء فيها :

عند أوسترلتز كان الملتقى والتقاء النسر بالمستنسرين

صدت شاه الروس والنمسا معا من رأى شاهين صيدا فى كمين

كان الامبراطور نابليون فى تلك المعركة يرتدى ثوبه العسكرى ويجلس بين ضباطه على الأرض ويعيش بين جنوده كأحدهم . . وكتب إلى زوجته :

« لقد هزمت النمسا والروسيا معا ، وانتهيت من المعركة الآن ، ويحق لى أن أذهب إلى الفراش لأول مرة منذ أسبوع كامل ، وسوف أنام فى غرفة نوم

البرنس كونتز . . عسى أن أنام ساعتين أو ثلاثا . . » .

قال نابليون عن معركة « أوسترلتز » :

« انها أبدع معركة خضتها ، وقد غنمت فيها ٤٥ راية وأكثر من ١٥٠ مدفعا ، وعلم الحرس الروسى ، وأسرت ٢٠ جنرالا و ٣٠٠٠٠ أسير وبلغ عدد القتلى ٢٠٠٠٠ .

أى معركة رهيبة ! ! »

ولكن هذا الانتصار الساحق لم يحقق السلم المرتقب .

لقد وقفت له انجلترا بالمرصاد ، وحرضت عليه روسيا فلم تقبل الصلح ، وثار ضباط الجيش البروسى – ورثة فردريك الأكبر – يطلبون جلاء الفرنسيين عن ألمانيا .

ولم ينتظر نابليون ، وعاجل البروسيين بهزيمة بعد أخرى فى « سالفلد »و « ينا » . . ودخل برلين وانتزع سيف فردريك الأكبر واخذه كأثمن أسلاب الحرب جميعا . . كما أنه تقابل مع الشاعر الخالد « جوتة » وتبادلا التحية والاعجاب .

وأصدر نابليون « مراسيم برلين » التى أعلن بها حصار الجزر البريطانية وحرّم على دول أوربا الاتجار معها أو فتح موانيها لسفنها .

« أريد هزيمة البحر بقوات البر » .

وبعدها اتجه إلى روسيا ليتعقب فلول الجيش البروسى التى استقرت فى كنف الجيش الروسى . وانتصر نابليون فى « الوا » و « فريدلند » ، والتقى بالقيصر اسكندر وعقدا معا تحالفا يقضى بإطلاق يد روسيا فى الشرق ويد نابليون فى

الغرب . . أى أنهما اقتسما السيطرة على أوربا .

وبهذا الاتفاق حقق نابليون أكبر اتساع وصلت إليه الامبراطورية الفرنسية .

الملك يتنازل . . والشعب يرفض :

اتجه نابليون بعد قضائه على قوات خصومه فى أوربا إلى محاربة انجلترا اقتصاديا كما جاء فى مراسيم برلين ، وذلك بغلق السوق الأوربية فى وجه بريطانيا ومنع أية دولة من التعامل معها ، ولهذا استولى على الشواطىء الألمانية وهولندا ثم أغار على البرتغال لأنها رفضت الخضوع لقراراته ، وكانت أهم الأسواق الانجليزية فى ذلك الحين .

ولم يكتف بذلك بل خطا خطوة أخرى غير هينة -- كانت موضع انتقاد شديد - إذ أعلن ضم أملاك البابا إلى فرنسا ، ثم قبض عليه وأودعه السجن ! ؟

وانتقل نابليون إلى ميدان جديد ، فإن أطماعه لا تنتهى . . اتجه إلى أسبانيا وأجبر ملكها على التنازل عن العرش لابنه وفى اليوم التالى أجبر الابن على التنازل عن العرش . . وتوج أخاه « جوزيف » ملكا على أسبانيا .

ولكن الشعب الأسبانى رفض الاستسلام والهزيمة وقاوم الفرنسيين وأشعل حرب العصابات ووجد نابليون أنه تورط فى أسبانيا ، وقد أقر بأن غزو اسبانيا كان أسخف عمل قام به فى حياته .

وقد نصحه أحد جنرالاته بالانسحاب وترك البلاد لأهلها ، لكن نابليون قال : « لايمكن أن أتراجع عن موقع بلغه عقلى وسيفى ومن العسير أن أعترف بأنى وقعت فى خطأ فاحش . . هل أنا نابليون صغير . . أو نابليون عجوز » ! ؟

كانت الشعوب تنشد السلم والاستقرار ، ونابليون لايملك إلا الحرب ، وقد

أخفقت جميع محاولاته لاقرار السلم فى أوربا على أساس سيطرته على جميع حكوماتها . . وإذا لم تخمد المعارضة وتستسلم الدولة فلا سلم ولااستقرار . . وأمام هذا المنطق فان عليه أن يخضع النمسا وإيطاليا وبروسيا وأسبانيا والبرتغال . . وبريطانيا . . وأن يخضع المعارضة الزاحفة فى فرنسا نفسها !

هزمنى الجنرال يناير !

أدرك نابليون أن الجيش النمسوى بدأ يتحرك ايذانا بمرحلة القصاص فسارع إلى ملعبه المفضل وشق طريقه إلى ميدان انتصاراته . .

« لقد وجدتها . . ان جيشهم سيفنى فى معركة بعد معركة . . وقبل شهر سأكون فى فيينا »

وقطع الجيش الفرنسى ٦٥ ميلا فى أربعين ساعة وهزم جيش النمسا فى خمس معارك متتابعة ثم بارح النمسا إلى بروسيا ، وعاد فى خلال خمسة أيام من درسدن إلى باريس . .

كان نابليون أسرع رحالة فى زمنه !

ثم شرع فى حملة على روسيا . .

وسأل أسيرا روسيا : ماأقصر طريق إلى موسكو ؟

ورد الأسير الروسى : كل الطرق توصل إلى « روما » ياسيدى . .

ان شارل الثانى عشر ذهب على طريق « بولتافا » . .

. . . مشى نابليون الى أشق وأبعد أهدافه : موسكو .

كانت القوات الروسية تنسحب أمام نابليون وتخرب المدن وتشعل الحرائق وتقاتل قتال المؤخرة للتعطيل والازعاج وتدمير المواصلات ومراكز التموين .

وفى كل مساء كان يتوقع المعركة فى الصباح ، وفى الصباح لايجد إلا الخراب ولا أثر للجيش الروسى .

وحدثت معركة تجريبية فى « بورونيو » ، وكانت معركة قاسية أجهزت على حياة سبعين ألف مقاتل .

ووصل نابليون إلى مشارف موسكو . .

وقال الامبراطور : موسكو ، حانت ساعتك !

ووقف ينتظر مفاتيح المدينة يحملها إليه عمدة موسكو مع صك التنازل والتسليم . . وطال به الانتظار .

ومضى نحو الكرملين ، وإذا المدينة التاريخية صامتة والطرق خالية والأبواب مفتوحة . ولكن لايوجد إنسان ! ورأى نابليون شيئا غريبا . . وجد النار مشتعلة ! فاضطربت أعصابه وزاغ بصره وأحس بالكارثة . . وراح يهذى :

« ماأبشع هذا المنظر . . يدمرون بيوتهم . . يحرقون مدنهم . . وقصورهم . . أى قرار جنونى . . النار فى الكرملين . . » ! ؟

وتحسس كيسا صغيرا مشدودا إلى رقبته ، وضع له فيه طبيبه كمية من السم . . ليستخدمها عند اللزوم !

أنا . . الجيش الأكبر :

بالأمس كان جنود فرنسا يتساقطون من شدة الحر فى صحراء مصر . وهاهم أولاء يتساقطون من الصقيع فى مجاهل روسيا .

وأطبقت الهزيمة على نابليون بسبب خطة الانسحاب التى أتبعها الروس ، وبسبب البرد الفظيع وامتداد المواصلات وامتناع الامدادات والمؤن وشيوع

الحرائق واشتداد الحرب السرية : حرب الغوريلا التى تهاجمه من موضع إلى موضع بغير اشتباك فى معركة فاصلة .

وارتد نابليون مثخنا بجراح أشد هزيمة وكان جنوده فى حالة مزرية من الأعياء والانكسار حتى أن المارشال ناى – أشجع الشجعان – عاد مغبر الوجه ممزق الثياب ، فأوقفوه عند الحدود الفرنسية وسأله أحد الجنود : من أنت ؟

قال ناى : « أنا الجيش الكبير» !

وقال نابليون : لقد هزمنى الجنرال يناير .

ومع هذه الكارثة فان نابليون عاد إلى باريس بدون أن يفقد حميته ونورانية فكره وسرعان ماأعد جيشا للدفاع عن حدود فرنسا ، وقال : هذه المرة سأفعل كما كان يفعل الجنرال بونابرت !

وانتصر فى عدة معارك ، لكن جيوش أوربا اتحدت جميعا لتقف فى وجهه كتلة واحدة قوية متراصة . . ليس هذا فقط بل ان قوى جديدة معارضة ظهرت فى داخل فرنسا وتألبت على امبراطورها . . لقد أتعب نابليون الجميع !

وكانت كرة السياسة والحكم فى فرنسا قد أصبحت فى قدم « تاليران » الذى أخذ يحركها فى مهارة وحذر ، لكى يحقق الهدف الأسمى : انقاذ فرنسا .

ورفض الحلفاء مفاوضة نابليون ، فأرسل إليه « تاليران » أحد رجال الموقف « كولينكور » ليتفاهم مع الامبراطور ، فوجده فى قصر « فونتنبلو » يصلى . .

وابتدره الامبراطور : ماذا تريد منى ؟

فأجاب : تضحية كبيرة . . تتزل عن العرش لابنك ! !

واتفقت دول أوربا على نفى نابليون فى جزيرة « البا » ، وهناك عاش النسر فى القفص . . غير أن آماله لم تحبس معه !

كانت الأمور فى فرنسا قد مضت على غير ماقدر لها ، وعاد آل بوربون إلى الحكم . . وفجأة انطلق النسر من عقاله وقفز من عش إلى عش حتى هبط عند كنيسة نوتردام . . ودخل باريس .

لكل نابليون . . ووترلو :

اختفى نابليون من جزيرة « البا » . كالنسر أفلت من القفص ، وسرعان ماعاد إلى حماه ، ومعه جماعة من حرسه . وكلما اقترب من باريس مرحلة ، كانت تنضم إليه جماعات متوالية من الأهالى والجنود ، فهذا هو قائد فرنسا وامبراطورها وبطل انتصاراتها ورافع أعلام مجدها وعظمتها .

كانت فرنسا فى انتظار رجلها ، وكان الامبراطور لويس الثامن عشر فى انتظاره أيضا . . فبعث جيشا فى طلبه – حيًا أو ميتا – وكان ملوك وقواد أوربا المجتمعون فى بروكسل قد فاجأهم وهز أعصابهم خبر افلاته من معتقله . فأصدروا قرارا باهدار دمه ، وحرمانه من الحقوق المدنية والسياسية . . كما أصدروا أمرا بتعيين الجنرال البريطانى دوق ولنجتون قائدا عاما لقوات البلاد المتحالفة ، ليتولى قيادة معركة شاملة ونهائية للقضاء على نابليون وتخليص أوربا من التهديد المسلط عليها .

وتقدم نابليون من القوات الفرنسية التى جاءت تعتقله ، وكان على رأسها صاحبه القديم المارشال « ناى » . . وقال :

« إننى قائدكم وامبراطوركم فإذا كان بينكم من يريد قتلى ، فليتقدم »

وفجأة . . قال المارشال ناى لجنوده : « هذا هو قائدكم وامبراطوركم . . فحيوّه » .

وردّت عليه هتافات كهدير المدافع :

يحيا الامبراطور .

واستعاد نابليون سلطانه الساحر على الجيش وعلى شعب فرنسا .

أما الامبراطور لويس الثامن عشر فقد ترك العرش وآثر السلامة . . وغادر البلاد .

وعند الحدود البلجيكية الفرنسية بدأ الاستعداد للمعركة الفاصلة .

كان جيش نابليون يضم ٢٤٠ ألف مقاتل و ٤٠٠ مدفع ، وقد تولى بنفسه القيادة العامة وتصدر قوات القلب ومعه المارشال « سولت » رئيس الأركان ، وجعل على الميمنة المارشال « جروتشى » وعلى الميسرة المارشال « ناى » .

وكان جيش « ولنجتون » يضم ١١٠ ألف مقاتل نصفهم من البريطانيين والباقى من قوات هولندا وبلجيكا وهانوفر وبرنسويك ، وفى معاونته ٢٠٠ مدفع ، وقد اتخذ مواقعه الحصينة بين « أوستد » و « مونز » على خط الحدود البلجيكية . وكان الجيش البروسى المتحالف معه تحت قيادة المارشال « بلوخر » يشتمل على ١١٧ ألفا وفى معاونه ٣٠٠ مدفع وقد اتخذ مواقعه فى خط ممتد من « شارلروا » — « نامور » — « دينان » إلى « لييج » .

وقد بدأ نابليون المعركة مهاجما واتخذ « ولنجتون » خطة الدفاع .

وفى يوم ١٥ يونيو ١٨١٥ دهم نابليون مواقع البروسيين فى « شارلروا » وألزم « بلوخر » الارتداد مثخنا بجراح الهزيمة . ولكنه استطاع أن يثبت فى « سومبريف » ويعيد تنظيم قواته حتى تأتيه تعليمات جديدة من القيادة العليا ، أى من « ولنجتون » الذى حضر بنفسه على عجل ليعاين الموقف ويعيد تنظيم الخطوط .

وفى اليوم التالى اقتحم الجناح الأيسر الفرنسى - تحت قيادة المارشال « ناى » - مواقع ولنجتون فى «كاتربرا » ، على حين صدرت أوامر نابليون إلى المارشال « أرلون » بمعاونة الهجوم ، لكنه أخطأ فى تنفيذ تحركات قواته ، فلم يستطع المارشال « ناى » أن يقهر البريطانيين فى «كاتربرا » و استمرت مقاومتهم فيها . . هذا فى حين هجم نابليون على القوات البروسية وأوقع بها هزيمة سريعة فى « لينى » فتراجعت إلى الخلف ، وأمر الجنرال « جروتشى » بتتبعهم والحيلولة دون عودتهم إلى ساحة القتال .

وبذلك ابتعد جيش « جروتشى » وقوامه ٣٣ ألف مقاتل و ٩٦ مدفعا فى مهمة حجز الجيش البروسى ودحره ، ثم العودة إلى مسرح العمليات الرئيسية والذى أصبح محددا فى مساحة ٤ × ٦,٥ كيلو متر يشقها طريق « شارلروا » - « بروكسل » وتحوطها سلسلة تلال حول سهل قرية « ووترلو » التى خلد اسمها فى التاريخ وصارت مثلا شائعا «كبوة الجواد » و « سقطة البطل » فإذا قيل لكل جواد كبوة . فإنه يقال أيضا : « لكل نابليون ووترلو » !

وكان « ولنجتون » قد نجح فى تنظيم قواته باخفائها خلف سواتر من سفوح التلال تحميها من النظر والنيران . وكانت خطته افساد هجوم نابليون . . ثم الانقضاض عليه فى لحظة الحرج .

وجرت المعركة التاريخية بالترتيب التالى :

وفى يوم ١٧ يونيو بدأ نابليون هجومه على أرض موحلة نتيجة أمطار غزيرة فدفع جناحه الأيسر لمهاجمة ميمنة ولنجتون ، واستمر الهجوم طوال النهار فى ظروف طبيعية صعبة وبغير جدوى ، فقد صمدت القوات لكل هجماته . ثم دفع جناحه الأيمن لمهاجمة ميسرة العدو ، ولكنه ارتد على أعقابه عجزا أمام

الدفاع النشيط اليقظ . . وازاء هذا الاخفاق تراءت الفرصة لولنجتون فأرسل قوة للقيام بهجوم مضاد لكنها أخطأت التنفيذ ودخلت بين مواقع القوات الفرنسية التى حاصرتها تماما وقضت عليها .

ثم أصبحت المعركة معركة وقت ، ومن الذى يسبق الآخر فى الوصول إلى مسرح العمليات الحاسمة . .

هل ينجح القائد البروسى بلوخر فى الافلات من رقابة القائد الفرنسى جروتشى ويجىء إلى القائد العام ولنجتون فيسانده ويشد أزره وهو يشكل قوة لايستهان بها ؟

أو هل ينجح القائد الفرنسى جروتشى فى دحر البروسيين وابعادهم أو القضاء عليهم ثم يجىء إلى نابليون فيعزز مركزه ويكسبه المعركة ؟

وهل ينجح نابليون فى احراز انتصار حاسم على ولنجتون قبل أن يصل بلوخر والقوات البروسية ؟

. . . واندفع نابليون يسابق الساعة ، ويقود معركة المصير بكل قواه على المواقع الرئيسية للقوات المتحالفة ، واستطاع بجسارته وكفاءته أن يحدث ثغرة خطيرة فى صفوف أعدائه عند « لاهاى سنت » ، ومالت كفة المعركة لصالحه .

وشعر ولنجتون – الدوق الحديدى – باقتراب الخطر فأسرع إلى قلب المعركة وأصدر تعليماته المشددة لرجاله :

« ليس لدى أوامر سوى الصمود . . الصمود بحزم حتى آخر رجل منا » .

ثم انفرج ضباب المعركة بوصول القوات البروسية التى قلبت كفتى الميزان ونقلت النصر من عسكر إلى عسكر .

بدأت الهزيمة بتراجع ميمنة الفرنسيين عن « بلانسنوا » تحت تأثير هجمات الجيش البروسى .

ونظر نابليون إلى ميدان معركته الأخيرة بأسى بالغ ، ولم يعد أمامه سوى قرار واحد وأخير أصدره إلى قوات حرسه ، فاندفعت إلى وادى الموت ، فاستقبلتها قوات ولنجتون التى برزت من مخابئها فى اللحظة الحاسمة وأوقعت بها هزيمة ساحقة نهائية .

وهكذا انتهت معركة « ووترلو » .

وغابت شمس القائد العبقرى .

ففى معركة تسعة أيام أضاع نابليون الامبراطورية التى جاهد لانشائها طوال تسعة أعوام وخرج من مسرح الحرب والسياسة ودخل إلى ساحة التاريخ ، فاحتل مكانه كألمع عبقرية عسكرية !

وفى سانت هيلانة قضى نابليون بقية سنوات عمره ، وهناك عكف على كتابة مذكراته . . وفيها يقول :

« نحن شهداء مبادىء خالدة يبكى حظنا الملايين من الخلق ويتأوه الوطن لمصابنا . . ولو كنت مت وأنا فى أوج عظمتى ، لبقيت إلى الأبد . . لغزا لايحل ! »



لودفيج فان بيتهوفن

١٧٧٠ - ١٨٢٧

« هذا الطفل المعجزة

انتبهوا إليه جيدا . .

ان الدنيا كلها سوف تستمع إليه وتتحدث

عنه . »

الموسيقار العالمى موزار

حياته فى سطور

● لودفيج فان بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧) .

● ولد فى مدينة بون - ألمانيا - ١٦ أو ١٧ ديسمبر ، والثابت تاريخ تعميده : ١٧ ديسمبر ١٧٧٠ .

● نشأ فى بيت بسيط لأسرة ينتمى أغلب أفرادها إلى دنيا الموسيقى . والده جوان بيتهوفن كان يحترف الغناء الدينى فى أبروشية مدينة كوان . والدته ماجدولينا كفرتن تزوجها والده فى سنة ١٧٦٤ وانجبت له سبعة أطفال مات منهم أربعة فى سن مبكرة . وكان لودفيج ابنها الثانى .

● تنبه والده مبكرا إلى مواهبه الموسيقية فأراد أن يجعل منه « طفلا معجزة » لكن طريقته فى تعليمه لم تكن وفق أصول فنية ، وكان يغلب عليها العنف وعدم

النظام ، وكان ذلك الوالد مدمنا المخدرات حتى ساءت حالته وأسلم نفسه للضياع .

● تلقى وهو فى الخامسة من عمره عدة دروس على عازف فرقة البلاط فاتقن العزف على آلتى الكمان والبيانو .

● فى ١٧٨٢ أعجب به كرستيان نيف رئيس فرقة البلاط فقربّه إليه وجعله ينوب عنه فى قيادة الفرقة عند غيابه ، وظهر تفوقه فى الهارب والكمان .

● فى ١٧٨٧ أرسله نيف إلى فينا – مدينة الموسيقى العالمية الأولى – وهناك التقى بالموسيقى النابه موزار ، أعظم ملحن فى زمنه ، وقد اكتشف فيه مخايل الموهبة وصاح فجأة فيمن حوله : « انتبهوا إليه جيدا . . لأنه سيجعل الدنيا كلها تتحدث عنه » .

عاد بيتهوفن إلى بون على أثر وفاة أمه ، وقد أمتلأ حزنا ، وحمله المجلس الحسبى مسئولية الوصاية على أخويه .

● فى ١٧٩٢ أرسله الكونت – الفنان – فردناند والدشتين إلى فينا ليتتلمذ على على هايدن فلم يجد أحدهما فى نفس الآخر قبولا . لكن بيتهوفن قرر البقاء فى فيينا بصفة نهائية ، وبدأ يلمع كعازف بيانو مالك الناصية ، كما كان يتقن الكمان والفيولا : كذلك بدأت مؤلفاته تبهر الأسماع ومنها – حتى ذلك الحين – مقطوعات للبيانو وموسيقى الفرقة والسناتا التى كتبها فى مناسبة وفاة الأمبراطور جوزيف الثانى وتولى ليوبولد .

● بين ١٧٩٤ و ١٧٩٥ ظهرت رائعته : « كرونشرتو البيانو » وارتبط بفيينا كلية وقدم أعظم أعماله فى صالوناتها وأكاديمياتها . وكان له تلاميذ ومريدون من جميع الطبقات وبينهم الدوقات والبرنسات .

● كان يلوذ بالريف ويحب الطبيعة ويتمتع برياضة المشى مسافات طويلة يهبط عليه الوحى خلالها .

● قام برحلات عديدة إلى نورنبرج وبراج ودرسدن وبرلين حيث قاد أعظم فرقها وخاصة فرقة البلاط البروسى . وألف « السوناتا التشلو » للملك فردريك وليام الثانى ، وزار بودابست عدة مرات زيارات فنية مذكورة .

● تعد حياته هى موسيقاه . أما حياته الخاصة فقد طفحت بالألم منذ ولادته ورؤيته والديه على حال من الفاقة والانكسار . ثم أصيب بالصمم فكادت هذه العاهة أن تسلمه للانزواء أو التخلص من الحياة بالانتحار لكنه أبى وتعاظم وانتشلته عبقريته الفنية . . وكرسّ حياته للموسيقى .

● لم يتزوج ، ولكنه عرف الحب ، وكانت له معجبات كثيرات ، ومراسلات متبادلة مع سيدات من الطبقة الراقية وبخاصة السيدة تريزا برنزويك ، أخت صديقه الكونت فرنسوا برنزويك ، وخطبها بموافقة أخيها واستمر الحب بينهما أربعة سنوات أشعلت نار مواهبه فقدم أروع أعماله وجعلت حياته أملا واشراقا ، وراح يتألق ويغزو المجتمعات الراقية ويوطد صلاته بالأسر والأصدقاء والأمراء والنبلاء .

● فى ١٨١٠ بلغ أوج عظمته الفنية وجلس على عرش من مؤلفاته الموسيقية ، حتى قيل أنه ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل شعوره بقدراته وثقته بعبقريته .

● وضع سيمفونيته « البطولة » تمجيدا لنابليون بفكرة أنه « ابن الثورة » التى قامت للقضاء على الامبراطورية وتمكين السيادة للشعب ، وكان فى طريقه ليقدمها لنابليون بنفسه ، فلما علم أنه أعلن نفسه امبراطورا ، عدل عن

الذهاب ، وقال « الآن أصبح نابليون مثل غيره » !

● أرسى بيتهوفن الوانا جديدة من النغم والتصرف الموسيقى والأوبرالى ومن أشهر أعماله الخالدة :

سيمفونية البطولة « اورويكا » - الخامسة « القدر » - الريفية « باستورال » - السابعة - الصوتية «كورال » - كونشرتو الامبراطورى « بيانو » . - كونشرتو الكمان - سوناتا ضوء القمر « بيانو » - سوناتا باتينيك . - القداس - أوبرافيدليو .

● توفى سنة ١٨٢٧ وله من العمر ٥٦ سنة ويعد أشهر موسيقى فى دنيا الموسيقى والمحرر الأكبر للآلات الموسيقية .

● ألف ٣٢ سوناتا البيانو - ١٠ سوناتا للتشيلو والبيانو - ١٠ سوناتا للكام - ٥ سوناتا للتشيلو - ١٠ ثلاثى للكمان والتشيلو والبيانو - ١٤ رباعى - ٩ سيمفونيات - ٥ كونشرتو البيانو - كونشرتو الكمان .

الطفل المعجزة :

يعد بيتهوفن أحد الخالدين ، وإذا كان قد تربع على عرش النغم قبل قرن ونصف من الزمان ، فإنه بقى حتى اليوم اسما مشهورا تسمع أنغامه فى جميع العواصم وتدرس موسيقاه فى المعاهد وتعزف الحانه فى الأوبرات والمسارح وتسرى فى الراديو والتليفزيون ، وتتراءى صوره وتماثيله فى المتاحف والمعارض ودور الفن وفى بيوت الناس من كل جنس ولون . .

لقد ولد بيتهوفن موسيقيا ، وظهرت مواهبه وقدراته الفائقة أمام عظماء

الملحنين قبل أن يتعدّى العاشرة من سنى حياته ، وقدم انتاجا رائعا بأكثر مما اتسعت له حياته القصيرة نسبيا ، وقاد أعظم أوركسترات زمانه ، والتقى بالنابهين من الموسيقيين والشعراء ، وصاحب الأمراء والنبلاء ، وذاق الهوى مع أجمل وأرق سيدات المجتمع الامبراطورى .

كانت حياته هى موسيقاه ، أما حياته الخاصة فكانت لاتسمح بأى نجاح وكان لايصلح لمعتركات الحياة العادية غير نبوغه وقوة أخلاقه منذ طفولته الباكرة فكانت له ارادة قوية وعزيمة لاتلين . . وفى شتى مواقف الاغراء كان يتمتع وفى أسوأ ظروف الفقر والأحزان كان يثبت ، فإذا قيل إنه ولد موسيقيا . . فيمكن القول أيضا أنه ولد رجلا !

ولقد أراد أبوه أن يتخذه كنزا ويجمع الأموال من خلال عزفه فى الطرقات أو الحفلات . ولو قدر لهذا الوالد أن يكون متعلما ومنظما لأفاد حقا من عبقرية ولده ، غير أنه كان مدمنا كما كانت أمه أيضا قليلة الحيلة ، فهو لم يسعد بوالديه وإن كان حزن عليهما ، وبدأت حياته تفيض لوعة وعذابا من أجلهما ، ولما ماتت أمه لم يعر المجلس الحسبى والده اهتماما لأنه كان ضائعا وقرر أن يكون بيتهوفن الصغير وصيّا على أخوته .

ولم يصدم الطفل العبقرى فى والديه فحسب . وإنما كان أخواه يتبعانه ويبتزان الأموال من عرق جبينه بدون أن يبدى هو حراكا ، لقد عرف بيتهوفن الأسى أول ماعرفه فى أسرته . ولذلك شب معتمدا على نفسه صبورا على أخطاء ذويه ، وأكسبه ذلك اعتدادا وغلوا فى فهمه وإدراك ماوراء ظاهراته وتصرفاته ، الأمر الذى جعل الكثيرين يخفقون وظنوا أن به ضعفا يدفعه للتظاهر وحقدا يجعله متكبرا وصلفا يبعده عن المجتمعات .

لقد كانت طفولة الطفل المعجزة مليئة بالهم والنكد فى حياته الخاصة ، لكنها كانت تفيض بالنباهة والتفوق ، فلمع أسمه وذاع صيته واشتهرت مؤلفاته قبل أن يدخل مرحلة الشباب .

جنة الموسيق :

بدأت المرحلة الثانية فى حياة بيتهوفن الفنية عندما ذهب إلى النمسا فى سنة ١٧٨٧ ، وكانت عاصمة الموسيق أو جنة الموسيق ، وهناك تلقى دراسته التى يمكن أن نقول إنها الدراسة العليا ، أو الدراسة العملية الواقعية التى أفادته كعازف ، ولكنها كانت فى الأهم والأرجح مرحلة الوحى والالهام ، فهناك فى فيينا التقى بكبار الملحنين فى زمانه : موزار ، وهايدن ، وهناك التقى بالفرق الموسيقية المدربة التى جلست على قمة الأداء الموسيقى ، وهناك عاش فى مجتمع فنى . . يفطر ويتغذى بالموسيقى .

قرر بيتهوفن أن يقيم فى فيينا بصفة نهائية ومعنى هذا أنه وجد عشه الفينان وواديه الأخضر وسماءه العلوية ونغمه السارى ، فأقام فى ظروف تدعو كلها للنجاح وتيسّر للاجادة . . وكان ذلك فى ضحوة العمر وقدم خير ماعنده عزفا وتأليفا ، ونال مايتمنى من ازدهار الموهبة وصقل الإنتاج وقمة العمل . . فاجتمع الرأى على الاعجاب به والاشادة بأعماله والاقبال على مؤلفاته .

ولم يكن بيتهوفن يميل إلى أن يصبح صنيعة أحد ، ولم يهرع كغيره إلى منصب ثابت أو يحتمى ببيت عريق ، ولهذا اعتمد خلال فترة نموه ونضوجه على قلة من هواة الموسيقى المعجبين بفنه . . ونظرا لأنه كان عصبّى المزاج فقد كانت

حياته قلقة ومعرضة للشحناء والبغضاء ، وان جعلته صفاته وعاداته سيد نفسه وصاحب حظه ومقرر مصيره .

ومثلما فعل موزار استطاع بيتهوفن أن يستولى على الأوساط الراقية فى فيينا ، ولكنه كان يختلف عن موزار الذى اشتهر بتواضعه ودماثة خلقه ورقة شمائله .

وعندما اشتعل أوار الثورة الفرنسية ، وتبيّن بيتهوفن المبادىء الجمهورية التى قامت عليها الثورة أعجب بها وتحمس لأفكارها ، فلماجاءه الجنرال الفرنسى الكونت برنادوت يحاوره فى شأن إنتاج لحن يعبر به عن بطولة نابليون القنصل الأول ، فان بيتهوفن استجاب بفخر ورضا ووضع سيمفونيته الثالثة « أرويكا » يمجد فيها البطولة واعتزم أن يتقدم بها إلى نابليون . . وفى الطريق فوجىء بأنه أعلن نفسه امبراطورا على فرنسا .

وكان هذا مخالفا بطبيعة الحال لمبادىء الثورة التى قامت لاسقاط الامبراطوريات وجعل السلطة والسيادة للشعب . . وراح ينظر الى الامبراطور نظرته إلى صائد نهاز ، ولم يعد يراه بطلا وإنما يراه رجلا عاديًا كالآخرين له مطامعه الشخصية وغاياته الانتهازية .

ولما كانت السيمفونية من روائعه وأريد لها أن تعزف – بعد نهاية نابليون – فقد أجرى بيتهوفن تعديلا فيها ، وجعل نشيد « الأسى » بدلا من نشيد النصر وسمى اللحن لحن البطولة بدلا من سيمفونية البطل ، وأضاف إلى عنوانه : احياء لذكرى رجل عظيم .

ولم يكن بيتهوفن قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما بلغ عزفه حد الروعة وفاقت الحانه جميع معاصريه وسابقيه . .

وفى ١٧٩٦ سجل فى مذكراته هواتف نفسه ومشاعر نجاحه :

« إقدامًا . . وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى . . هأنذا وقد بلغت الخامسة والعشرين فيجب أن أظهر فى هذا العام رجلا كاملا » .

لقد كان بيتهوفن يتمتع بشباب النغم وليس بشباب العمر ، كان عقله يعمل بقوة وغزارة لكن قلبه كان يخفق بحذر . . ذلك نتيجة الوراثة والنشأة التى اتسمتا بالفقر والانكسار ، ونتيجة لضعف عام فى الصحة ، لكن شعور بيتهوفن بالتفوق واحساسه بروعة انتاجه وذيوع أمره جعلته يقوى على ضعفه ويرتفع فوق مشاعر الأسى القديم ، ثم إنه أصبح فى مجتمع راق وبين أسر عريقة ، وانساب المال بين يديه فلم يعد رجلا بسيطا ، ولفترة - ربما قصيرة - انتفخت أوداجه وكانت به كبرياء وعنده اعتداد فعاش عيشة مجتمعه ، وهو مجتمع الموسيقى والحب .

وألفى بيتهوفن حوله نساء شهيرات ، اما بعراقة الأصول واما بوفرة الغنى إلى جانب الصبا والجمال والتذوق الفنى ، فأخذت مشاعره الشابة تتحرك وقلبه يحس بالخفقان .

وقد عرف أن بيتهوفن ارتبط بمشاعر الحب مع كثيرات ، لكنه لم يتزوج برغم الاشاعة التى زوجته سنة ١٨١٠ من « تريزامالفاتى » ابنة أحد كبار الملاك ، لكن الموثوق هوماتركه بيتهوفن من وثائق وخطابات الغرام المتبادلة مع الكونتيسة جوليتا جويتشياروى ، والكونتيسة تريزا فون برونزويك ، والمغنية « ماجدلينا ويلمان » والمغنية « أماليا سيبولد » .

وأخيرا ظهرت قصة غرام كانت خافية وغريبة فقد كان هناك حب متبادل ورسائل غرامية ملتهبة بين بيتهوفن والكونتيسة « جوزفين دايم » . . ووجه الغرابة أنها الشقيقة الصغرى لحبيبته وخطيبته خلال أربع سنوات : الكونتيسة تريزا ،

وقد نشرت بعد وفاته مجموعة كبيرة من خطابات الغرام التى كان يكتبها لها .

كما أنه كان مفتونا بحب الكونتيسة « أناماری أورودوی » التى أقام فى بيتها فترة غير قصيرة . . قدم خلالها مجموعة من خيرة أعماله .

عاهة الصمم :

إذا كان الموسيقى لايسمع فتلك مأساة لايملك المرء معها إلا أن يشفق على ذلك الفنان الذى يسعد أسماع الناس ولايسمع هو ألحانه ، أما إذا كان هذا الموسيقى هو صاحب صولجان النغم وشاغل عرش الألحان . . فإن الأمر يصبح كارثة بحق . !

سبحان الله . . لقد حلت عاهة الصمم بيتهوفن وهو فى قمة مجده وخيرة أعماله الفنية ، فلم يعد يسمعها ، وكان ضيق الخلق سريع الغضب فزادته اضطرابا وتجهما وحار الطب فى أمره وعجز عن انقاذ سمعه فكفت أذناه نهائيا ، وقد ألجأه مصابه إلى الانزواء وفكر فى الانتحار ، وكتب إلى أحد أصدقائه :

« ان صديقك بيتهوفن بائس غاية البؤس . ان سمعى ، وهو أكرم على من نفسى ، قد ضعف كثيرا وكنت أشعر منذ كنا معا بأعراض المرض ولكنى كنت أخفيه . ان مثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس . . ولاريب أنى فرضت على نفسى السمو فوق كل هذه الآلام ، فهل ياترى استطيع أن أحقق ذلك ؟ »

خرج الفنان العظيم الأصم من عزلته إلى الحياة ، وحياته الموسيقى . . وترك فى وصيته لمحات من آلامه ومخاوفه .

« لقد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الإجتماع ثم اضطررت ومازال فى أول عمرى إلى عيش العزلة ، وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الأليمة القاسية غير مرة ، وجددت عندى الاحساس بمرضى ، ثم أنى ماكنت مستطيعا أن أقول للناس : ارفعوا الصوت . . فإنى أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى أقرب إلى الكمال منها عند الآخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الصحة جدا لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه .

أى مذلة أن أرى رجلا على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ، وأنا لا أسمع شيئا أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئا . . لقد قربت التجارب بينى وبين اليأس حتى كدت أقضى بيدى على حياتى . لكنه الفن . . نعم هو الفن وحده الذى استبقانى . . »

هذا بعض ماقاله الفنان الخالد ابن الثامنة والعشرين من العمر .

بديع . . عظيم . . وفوق العقل !

قدمت الحياة لبيتهوفن اسوأ ما فيها . . وقدم لها بيتهوفن أعظم ما يقدمه فنان كبير . .

ففى طفولته عرف الفاقة والحاجة ، وفى شبابه عرف عقوق الأهل وانتهازيتهم للكسب من ورائه ، ثم نزلت به عاهة الصمم فجعلت حياته جحيما لايطاق . فلم يعد يسمع موسيقاه ولاعزف أوركستراه الذى يقوده ولاتصفيق الجماهير وصياح النظارة وهتافهم . . وبعدها تخلى عنه أصدقاؤه وانفصلت عنه حبيباته .

أما هو فقد شب ونما واستمر عازفا متجليا ومؤلفا يسخو بأعظم الأعمال الموسيقية الخالدة .

وإذا قلنا أن أعماله الموسيقية خالدة فقد لايبلغ هذا التقييم غاية التقدير ، وربما نجد من بينها أحسنها وأشهرها مثل سيمفونيته الخامسة التى اشتهرت بايقاعاتها الأربعة الأولى ، والتى قال عنها بيتهوفن نفسه : « انها تبدو وكأنها القدر يدق الباب » . وسيمفونيته الريفية « باستورال » التى أوحى بها جمال الريف فى النمسا والتى تحمل السامع إلى الطبيعة الجميلة والآفاق الحالمة ، ثم السيمفونية الأولى والسيمفونية الثامنة ، وقد صاغها بيتهوفن وهو فى قمة سعادة النفس وانشراح القلب .

كان بيتهوفن بطل الموقف الفنى ، بعد معركة ووترلو ، فدعى لحضور مؤتمر فيينا - بين كبار القادة ودهاة السياسة - كعنوان من عناوين مجد أوربا ، وقاد الأوركسترا التى لعبت أمام ملوك العصر نشيده « ساعة المجد » .

ويوضح مقدار تأثير بيتهوفن فى عصره رسالة من سيدة مشهورة اسمها « بنينا برنتانو » بعثت بها إلى الشاعر جيته تصف له عظمة بيتهوفن :

« ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل شعوره بقدراته . . لما رأيته . . انمحى الوجود كله من أمامى ، ولقد أنسانى بيتهوفن العالم وأنسانى أياك أيضا ياجيته . . »

وعندما سمع جيته بيتهوفن - كما روى مندلسن - غلبه اللحن الذى شنف سمعه ودغدغ وجدانه ، فلم يتمالك جوته أن قال :

« هذا بديع وعظيم وفوق العقل » .

وقد وصف أحد كتاب زمنه مشاعره وأحداث المسرح فى ختام السيمفونية التاسعة :

« نهض الأوركسترا فجأة وساد المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيا رهيبا بحق ، فهذا النشيد نسيج وحده . . وكأنما هبطت المسرة من السماء تحوطها طمأنينة الخلود فتسكن الآلام بريحها الناعم وتجرى إلى القلب جريان البرء فى فؤاد المريض وتحرك فى النفس موجات السرور ، فكأنها ترى نبض بيتهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع والخلوات ويضع ألحانه وكأنما ملكته قوة الجان ، وتعقب مسرة الحرب . . مسرحة الروح . . مسرة بالإيمان . . »

ان كثرة من أعمال بيتهوفن لم تظفر بالتقدير الحق والشيوع الشعبى فى أثناء حياته ، لأنه فى سبيل التعبير عن أفكاره النبيلة كان عليه أن يتفادى بل يحطم كثيرا من قوانين عزف النغم المقبول .

لقد عاش بيتهوفن حياة خاصة متعبة ولكنه عاش حياة فنية حافلة ، لم يأخذ لنفسه شيئا وإنما أعطى عالم النغم ثروة طائلة وخلف لملايين البشر حصيلة من الموسيقى تبهج القلوب وتسعد النفوس .

وإذا كان هو فقد السمع والبهجة فأنه أعطى السمع والبهجة لكل الناس فى جميع الأوقات .

ومثلما بدأ الرجل الخالد بداية عائلية معذبة فقد ختم حياته ختاما عائليا معذبا لأنه كان يحاول أن ينشىء ابن أخيه على الاستقامة والشرف فلما سقط فيهما أخذه بيده وسافر إلى بلده لكى يوفر له الرزق والاستقرار ، وفى الطريق أبرقت السماء وأرعدت ونزل برد شديد أصاب بيتهوفن وأسلمه للمرض ثلاثة شهور متتابعة ،

وقضى آخر أيامه فى بؤس وشقاء .

وأخيرا دنت النهاية ونزل الستار على ختام الملهاة يوم ٢٦ مارس ١٨٢٧ وانتقل بيتهوفن إلى عالم الخلد وهو فى السادسة والخمسين من عمره مشيعا من الجماهير بالأسى والبكاء .

ذهب ، ولكن أعماله الخالدة بقيت ، دائماً . . كلما أدار إنسان مفتاح الراديو أو أسطوانة البيك آب أو شريط التسجيل . انسابت الأنغام العلوية وتعالت الموسيقى الرائعة . . وتسمع ساعتها اسم : بيتهوفن . . مقروناً بالتقدير والإعجاب .



مارى كورى

١٨٧٦ - ١٩٣٤

العالمة الشابة التى عاشت فى حجرة فقيرة رطبة فوق السطوح وواصلت الليل بالنهار حتى اكتشفت مادة الراديوم لقهر داء السرطان الوبيل !

ونالت جائزة نوبل . . مرتان .

الطفلة الزهرة التى تفوقت على أقرانها سرعان ماانطفأ بريقها بعد احالة والدها إلى المعاش ، ومرض أمها . . واحتلال الروس وطنها .

وعاشت الصغيرة فى براثن الفقر تعمل وتتعلم ، لتحصل على لقمة العيش وأجر التعليم حتى حصلت على الليسانس .

نشأت مارى سكود وفسكى وأخوتها الأربعة – ولد وثلاث بنات – على حب أمهم وأبيهم الأستاذ « فاديسلاو » معلم الطبيعة ، فى وارسو عاصمة بولندا . . ومنذ أن دخلت المعمل تملكتها الدهشة وبهرتها الأجهزة والأدوات ، فلم تكن تفتنها لعب الأطفال ولايجتذبها اللهو والمرح .

وأدركت الطفلة مارى أن امها مصابة بداء الصدر تنهشها نوبات سعال جاف أليم . . وكانت وأخوتها يلمحون فى وجه أبيهم علامات الذعر والألم المكتوم . . فيجتمعون فى صلاة المساء ويدعون بصوت واحد : أللهم أنعم على

أمنا بالصحة والراحة .

كان المرض يجثم على صدر أمهم ، والاحتلال الروسى يجثم على صدر أمتهم .

وتلك حياة صعبة كئيبة ، واليأس يغلب الرجاء .

وقرع الموت باب الأسرة المسكينة فاختطف إحدى البنات ، ثم اغتال الأم . . وعرفت مارى الزهرة مبكرا ماهو الشقاء . . والألم . . والموت .

واتجهت إلى محراب العلم ، وراحت تصلى : دراسة واجتهاد وتفوقا .

لم يكن يلذّ لها اللعب وشقاوة الصبية ، ولم تحفل بمايجرى حولها من هرج زميلاتها وصياحهن وضحكهن . . وإنما وهبت نفسها للعلم وترهبت للتفوق .

كانت مارى هى الأولى فى جميع مراحل الدراسة ، وفى كل اللغات . وامتازت بذاكرة مدهشة . . فكانت إذا استمعت لقصيدة مرتين ، أعادتها على الفور ، عن ظهر قلب .

وشبّت الطفلة وصارت آنسة كاعبا ناهدا جميلة فى السابعة عشرة من عمرها متفوقة فى الدراسة شغوفة بالبحث . . كل مافيها بديع ورائع . . إلا سحابة أسى لاتخفى على عينى خبير . . أسرتها فقيرة ووطنها محتل ؟ !

لم تكن تفكر فى الحب والزواج ، وإنما شغلتها ظروف أسرتها وأحوال بلدها . . وكانت وجهة نظرها . . أو شعارها : العلم والعمل . . من أجل الحياة وفى سبيل الوطن .

وفكرت – لكى تساعد أسرتها – أن تعطى دروسا خصوصية بأسعار زهيدة فى الحساب والجبر واللغة الانجليزية . . وشمرت عن ساعدها الفتى وكشفت عن روحها الباسلة وهدهدت أعصابها المرهقة . . وتحملت فى ذلك مالايطاق من

دلع البنات وسوء معاملة المعلمات . . فهي تريد أن تتثقف وتعيش ، وكانت عيونها تسرح بأمل فى الأفق بعيد . . وتتراءى لها الجنة الموعودة : باريس .

لم تكن مارى تفكر فى ذاتها ، وحسب ، وإنما كانت تحاول مساعدة أختها الكبيرة التى كانت تنوى الدراسة للطب فى باريس ، وتحاورت الشقيقتان فيمن تذهب منهما أولا ثم تعين الأخرى فيما بعد . . وكل منهما تحاول التضحية من أجل الثانية . . وظهر أن الأجر الذى تتقاضاه مارى لايوفّر لأختها مايلزمها فقررت أن تشتغل مربية فى بيت أحد الأسر حتى تحصل على أربعمائة روبل فى السنة !

وتقدمت لمكتب التخديم . . ومعها شهادات من أولياء أمور التلاميذ الذين كانت تعلمهم ، ومعها أيضا صك تفوقها فى اللغات الألمانية والروسية والفرنسية والانجليزية . . وحصلت على عمل فى بيت محام من أصحاب الجاه والثروة . . وقالت فى مذكراتها :

« إنهم لايدفعون المطلوب منهم بسهولة ، ولا فى موعده . .
بل يلّذ لهم التأجيل . . انهم يلقون بالنقود من النافذة ، ويقترون
أشد التقتير فى غاز الاستصباح . . ولديهم خمسة من الخدم !
ولا يدور حديثهم إلا عن أخبار الجيران . . بلا حساب . . لقد
تعلمت أن أشخاص القصص والروايات موجودون فعلا فى الحياة
وأنه يحسن البعد عن الذين أبطرهم الغنى وأفسدهم الجاه . . »

انتقلت الشابة الرقيقة من بيتها الهادىء البسيط وأهلها الطيبين الودودين إلى حيث عاشت تخدم أسرة مدللة لاهية . . وعرفت الآنسة مارى مبكرا معنى الحاجة والاضطرار ، وكان عليها أن تتحمل ثقل هؤلاء الناس وأن تصبر على

تفاهاتهم وأن تقتصد من نفقاتها المحدودة لتدبر المال اللازم لأختها التى تعيش خالية الوفاض فى الحى اللاتينى ، لكى تصبح طبيبة .

وفكرت مارى فى أن تعمل فى بيت يدفع أكثر ، ووجدته فى بلدة تبعد عن وارسو مائة كيلو متر تقطعها فى ثلاث ساعات بالقطار ثم أربع ساعات أخرى على زحافة ، تتزحلق على الجليد . . ! ودخلت فى رعاية أسرة واسعة الثراء ، فكانت مارى ترعى أطفال الأسرة . . ثم صممت على أن تعلم أولاد الفقراء من العمال القراءة والكتابة . . مجانا .

لقد وهبت نفسها للعلم والعمل !

لم تكن تفكر ، أو يجول بخاطرها شىء سوى عملها . . ولكن جاء الحب فجأة ! جاء الحب يطرق بلطف قلبها الرقيق . . ابن الأسرة الغنية أحبها وأحبته . . وتواعدا على الزواج . . ولكن أهله يرفضون ، لعدم التكافؤ . . وتلقى القلب الصغير صدمة كبيرة .

الليسانس . . والعريس . . فى باريس

سألت « مانيا » أو مارى . . الفتى الذى نقر على حبه قلبها : ماذا بعد ؟ فامتلأ وجهه بحمرة الخجل ، وظهر أنه مازال غرا ولايستطيع أن يخالف رأى أهله ، وبدأ أن تأثيرهم عليه أقوى من حبه ، فآثرت أن تبتعد وأن تسكت شقشقة العصفور فى قلبها ، ومات أول حب .

نعم ، تغلّبت على مشاعرها وقويت على ماأصابها . . ثم جاءتها أنباء أختها . . هى الأخرى هجرها خطيبها . . ودار بخلدهما معا أن الحب ، وربما الزواج أيضا . . لايعرف الفتيات الفقيرات . . ان مارى مربية أطفال « دادة »

شقية فى الحياة وفى الحب . . وماعليها إلا السعى للحصول على لقمة العيش ومصاريف التعليم لأختها فى باريس حتى تحصل على بكالوريوس الطب . . ليس هذا فقط ولكن عليها أن تبحث عن عمل عند عائلة أخرى تزيد أجرها لأن أختها تعيش فى شقة تهدد توقف دراستها .

. . ومرت ثلاث سنوات على الشابة الجميلة الذكية التى تخفّت فى ثياب مربية الأطفال حتى تحسن أحوال شقيقتها برونيا وقد اجتازت امتحاناتها بنجاح واجتازت أيضا اختبار الحب فخطبها أحد زملائها وبذلك وفرّت لمارى نقودها الصعبة . . وجاء دور مارى لتعيد الأمل فى باريس .

وأصبح الحلم حقيقة

انتقلت مارى من منزل صاحب مصنع السكر الذى لايفهم فى الحب إلى بيت آخر من بيوت العز والثراء فلقيت استقبالا طيبا وتقديرا وكرما . . ولكن لم يطل بها المقام ، فقد تلقّت دعوة عاجلة من أختها للسفر إلى باريس .

لقد تحقق الحلم أو الأمل . . ان مارى استمرت ثمانى سنوات تعمل فى البيوت لتعين شقيقتها . . والآن بلغت الرابعة والعشرين من العمر . . هكذا عبرت مرحلة الشباب، الحالم بدون أن تدرك شيئا .

وهرعت إلى السوربون ، وانتظمت فى فصول كلية العلوم ومدرجاتها . . كانت تجلس دائما فى الصف الأول وبجوار النافذة . . ولايشغلها شىء سوى العمل . . والتجربة . . والبروفيسور .

وفى رسالة من زوج شقيقتها فى باريس إلى أبيها المقعد فى وارسو :

« الآنسة مارى تدأب فى عملها وتكاد تقضى كل وقتها فى السوربون فلا

نلتقى بها إلا فى وجبة العشاء . . إنها فتاة مستقلة للغاية . . وتتلألأ تفوقا وأملا . . »

ثم بدأت مرحلة جديدة . .

قررت مارى أن تترك شقتها الصغيرة لأختها ، وتوفر ساعتين تقضيها فى الأوتوبيس ذهابا وإيابا إلى السوربون ، وتقيم فى عش صغيرة فى الحى اللاتينى ، تجد فيه حريتها وكيانها فلا تسبب مضايقة لأحد . . وتتحمل نفقاتها بمواردها المحدودة . . مائة فرنك فى الشهر .

وفى رسالة بعثت بها إلى أخيها جوزيف ، بتاريخ ١٧ مارس ١٨٩٣ قالت :

« لابد أنك علمت من أبى أننى قررت السكن فى حى المدارس ، وأنه لأسباب كثيرة – كان لابد من ذلك ولاسيما فى هذه المرحلة بالذات ، انى أكتب إليك من مسكنى الجديد فى شارع فلاترس رقم ٣ وهو غرفة صغيرة ولكن مناسبة جدا وخاصة أنها رخيصة . فى ربع ساعة أكون فى معمل الكيمياء . . وفى عشرين دقيقة أكون فى السوربون . » .

وأخذت مانيا تنتقل من غرفة إلى أخرى حتى حصلت على غرفة فوق أحد الأسطح بعشرين فرنكا ووضعت فيها عندها من أثاث : سرير حديد نقالى ومرتبة ، وموقد ، وترابيزة صغيرة ، وكرسى مطبخ ، ووابور سبرتو ، ومصباح ، وأدوات أكل . . وطشت غسيل .

غير أن عشها السعيد بحق كان مكتبة « سانت جنفياف » حيث كانت تقضى أحلى ساعاتها مع النور والدفء والكتاب .

واقترب موعد امتحان الليسانس

وذهبت الفتاة الموهوبة الشابة ذات التصميم والصبر والارادة لتحقق نجاحا رائعا : الأولى فى ليسانس الطبيعة سنة ١٨٩٣ والثانية فى ليسانس الرياضيات سنة ١٨٩٤ .

وكتبت مارى إلى أخيها جوزيف فى رسالة تاريخها ١٨ مارس ١٨٩٤ :

« ان حياتى متشابهة ليس فيها مايستحق الذكر ، بيد أنى أشكو من الأيام . إنها قصيرة وتمرّ بسرعة . . ولولا أنى أحب عملى لضقت ذرعا بهذه الحياة . . إن ماتمّ حتى الآن لايعدّ شيئا . . ومابقى لاينتهى !

وجاءتها منحة « ألكسندرو فتش » . . وستمائة روبل هدية . . مكافأة على البحث الفنى الذى تقدمت به .

ولكنها . . وياللعجب ! ذهبت بقدم ثابتة وتصميم لايتزحزح . . وأعادت المبلغ إلى المؤسسة . . انها لاتستطيع أن تقبل نقودا أكثر مماتحتاج إليه فعلا ! ؟

وتلك ظاهرة نادرة ، بل هى أزهى عصارة للشرف والأمانة . . والثقة بالنفس من طالبة تعيش على الكفاف وتعانى ما يمكن أن نسميه الجوع أو الحرمان . . ولاتستطيع أن تقى نفسها من البرد . . أو تضع على جسمها البديع الثوب الملائم . .

ان مارى كانت تحلّق فى عالم آخر لاتعرفه غير النفوس العالية ولايقدره إلا أصحاب العظمة الحقيقية والنفحات الالهية . . لقد كانت ترى أن النقود الزائدة عن الحاجة لها من يحتاجها . !

وجاءت مكافأة السماء

التقت مارى مع بيير كورى . . فى المعمل .

عالمان شابان ، لم يفكر أحدهما من قبل فى الحب والزواج . . وان كانا قد عرضا لها عفوا . . وإنما كان تفكيرهما مقصورا على البحث العلمى ، وكان بيير يعمل – بالاشتراك مع أخيه – فى أبحاث الكهربائية الطبيعية .

ترى . . هل جاء الحب عن غير طريق القلب ، أى عن طريقة المشاركة فى العمل ؟ ان الذى كان يجمعها هو الشغف بالبحث . . ولكن هذا اللقاء شد القلبين الصغيرين وربطها بعناية . . كان بيير فى الخامسة والثلاثين وكانت مارى فى السابعة والعشرين .

كان لقاؤهما فى مناسبة علمية ، فالتقيا فكريا واعجب كل منهما بالآخر وتبادلا التقدير والاحترام ، ثم سرت الدمغات من العيون وتفتحت العواطف وتوثقت عرى الصداقة والالفة والتفاهم . . ثم لم يعد أحدهما يتحمل غياب الآخر . كأنما عقلان وقلبان فى جسد واحد . .

وفى غرفتها الصغيرة ، فوق السطح ، مع الكتب والحلل ووابور السبرتو وطشت الغسيل . . رأى « بيير » أن « مارى » أجمل فتاة فى الدنيا .

ولما أبلغته أنها اعتزمت العودة إلى وطنها لتخدم أسرتها ووطنها . . قاطعها بيير قائلا فى تشدد ممزوج بالحب :

ليس من حقك أن تهجرى العلم . .

ليس من حقك أن تهجرينى !

وساعتها . . طلب بيير يد مارى .

وظهرت مشكلة جديدة : كيف تتزوج فتاة بولونية شابا فرنسيا ؟
ثم : كيف تهجر وطنها وأهلها وتقيم فى وطن آخر.

. . وتصورت مارى أنها تكون جاحدة لوطنها وأهلها إذا هى أطاعت هوى فؤادها . . وأنها مادامت قد اجتازت امتحاناتها فيجب أن تعود إلى بلدها . !

ولكن بيير صمم على أن يذهب إلى أبيها . . لابد أن يجتمع به عاجلا فى بولندا أو سويسرا .

وسافرت مارى إلى بلدها حيث قضت ثلاثة أشهر طويلة . . وخطابات بيير تتابع إليها بالشوق والاعزاز والدعوة إلى العودة حتى قررت مارى بعد تفكير متزن ومراجعة وجدانية أن تعود إلى باريس وأن تلبى رغبة بيير كورى .

وباركت أسرتها وأسرته هذا الزواج القلبى والعلمى .

وكتبت مارى إلى احدى صديقاتها :

« عندما يصلك خطابى هذا . . تكون صديقتك « مانيا » قد غيرت اسمها ! فسوف أقترن بالرجل الذى حدثتك عنه فى السنة الماضية أثناء لقائنا فى وارسو . . وإنه ليحزننى حقا أننى سأبقى فى باريس دائما . . ولكن ماالعمل ؟ . . ان القدر جعل كل منّا يتعلق بالآخر ، ولم نعد نحتمل فكرة الفراق !

أكتبى إذن إلى :

مدام كورى

مدرسة الطبيعة والكيمياء

٤٢ شارع لومون . . »

وفى يوم ٢٦ يوليو ١٨٩٤ ذهبت العالمة الشابة أو الزهرة اليانعة تفصل ثوبا

أزرق اللون . . فأضحت « ست الحسن والجمال » . . لاثوب أبيض للعروس ، ولاخاتم من ذهب ، ولامأدبة عرس ، ولا أضواء كنيسة !

لاشيء أبدا يهم . . سوى قلبين ينبضان بالحب وعقلين يتبادلان التقدير والاعجاب ، وسجل مدنى ، وشهر عسل فى الريف على دراجتين ! ؟

أصبحا واحدا فى الحب ، وواحدا فى المعمل .

واستقر الزوجان الشابان فى شقة صغيرة بالمنزل رقم ٢٤ بشارع لاجلاسيير . . اثاثها محدود حتى لاتجهدها وتشغل وقتها عملية التنظيف والتنظيم ، وسيكون بيتها بلا اجتماعات ولازيارات . . المهم : المكتبة . . وترابيزة المطالعة . . وتواضع العلماء .

« . . ثمانى ساعات دراسة علمية . . وساعتان أو ثلاث تدبير منزلى »

هذا هو ملخص الحياة اليومية للعالمة الشابة والزوجة المحبة .

. . وفى يوم ١٢ من سبتمبر ١٨٩٧ وضعت مارى طفلتها ايرين ، وتضاعفت مسئولياتها : تدبر لوازم بيتها ، وتحمى ابنتها ، وتضع الحلة على النار . . وتحصل على اجازة الليسانس وتفوز فى مسابقة الاجرجاسيون . . وتقدم بحثا فذا فى مغنطة الفولاذ المسقى . . ! ؟

الاكتشاف الباهر

شرع بيير ومارى كوى يعملان معا فى الجامعة ويستخدمان معملا متواضعا للبروفيسير هنرى بيكربل ، والتقيا بظاهرة غريبة . .

كان ذلك البروفيسور قد ترك لفافة بها كمية من أملاح اليورانيوم فوق إحدى اللوحات الفتوغرافية ، وإذا باللفافة تترك أثرا مطبوعا فوق ذلك اللوح

كأنما انبعث من داخلها أشعة فعالة . . وقام البروفيسور بفحص المادة الخام التى كان يستخرج منها أملاح اليورانيوم ولاحظ أن لها تأثيراً فوتوغرافيا أقوى مما يتناسب مع تلك المادة الضئيلة واستنتج من ذلك أن تلك المادة تحتوى على عنصر آخر مشع .

ولقد تحدث بيكر بل مع بيير ومارى عن تلك الظاهرة التى لفتت نظره . وقالت مارى – على الفور – : « إننى واثقة أن الانطباع الذى حدث على اللوح الفوتوغرافى يرجع إلى وجود عنصر غير معروف » . ولذلك فانهما بعثا إلى العالم الروسى منديليف يستطلعان الأمر ، وهو صاحب عملية تقسيم العناصر الكيميائية . . وجاء الرد من بطرسبرج بأن مجموعته لاتحتوى عنصرا غريبا . . وعندئذ ترك الزوجان العالمان كل ما يشغلها وشرعا على الفور يبحثان عن هذا العنصر الغريب .

. . واستخدما مخزنا صغيرا فى بدروم مدرسة طب ، كان أقرب إلى مستوى المغارة التى تخزن فيها المهملات العتيقة المستغنى عنها !

وكتب بيير ومارى إلى الحكومة النمساوية التى كانت تمتلك خام اليورانيوم فى « سان جواكمستال » فى بوهيميا – حيث كانت أملاح اليورانيوم تستخدم فى صناعة الزجاج . .

وبعد أيام وصل إلى المعمل الجديد طن من خام اليورانيوم .

وعلى الفور . بدأ العالمان الزوجان عملا جديدا وبحثا مرهقا ، وتجارب صعبة . . فكانا يقضيان طوال ساعات النهار فى تحريك كتل الخام فى درجة الغليان بقضيب من حديد . . وفى وسط هذا الجو الخانق والجحيم المقيم استمرا فى تجاربهما ، حتى أصبح طن الخام نصف طن .

وفى شهر يوليو ١٨٩٨ تمكن الزوجان العالمان كورى من عزل عنصر جديد تبلغ درجة فاعليته ثلاثمائة ضعف درجة فاعلية اليورانيوم . . وأطلقت عليه مارى اسم : « بولونيوم » قاصدة بذلك أن تخلد العنصر الجديد مقرونا باسم وطنها (بولونيا) .

وفى سنة ١٩٠٢ – أى بعد خمسة وأربعين شهرا من الجهد العنيف والتجارب المتواصلة – استطاعت مارى كورى أن تتأمل من خلال أنبوبة الاختبار : حفنة ضئيلة من مسحوق أبيض كثيف يشبه ملح الطعام .

هكذا تم اكتشاف : الراديوم .

وتحقق الانتصار الكبير ، وأعلن الزوجان العالمان كورى نبأ اكتشاف العنصر الجديد الذى تبلغ فاعليته مليونى ضعف فاعليته اليورانيوم .

وأصبح « بيير كورى » أستاذ كرسى الطبيعة العامة بجامعة السوربون ، وعضوا فى الأكاديمية .

ولم تفكر مارى أو بيير فى الانتفاع الشخصى باكتشافهما الذى كان يمكن أن يدر عليهما أموالا طائلة .

لكنهما كانا قد نذرا نفسيهما للعلم وللإنسانية .

وجاء فى مذكرات مارى كورى :

« لقد قرر بيير كورى – بالاتفاق معى – على أن لانحصل على أى نفع مادى من اكتشافنا ، فلم نسجله . وإنما نشرنا – دون أن نحافظ على حقوق الاكتشاف – نتائج بحوثنا ، وكذلك طريقة تحضير الراديوم . . وأكثر من هذا أننا أبلغنا كل من يهمهم الأمر . . كل المعلومات التى طلبوها » .

انتصار العبقرية

استقبلت الدوائر العلمية فى جميع أنحاء العالم نبأ اكتشاف الراديوم على أنه انتصار للعلم وأمل كبير للبشرية . . وأصبح العالمان الكبيران : مارى وبيير كورى موضع التقدير العام والاحترام فى جميع أنحاء الدنيا ، وتسابقت الدول فى تكريمهما وفى تقديم المساعدات والامكانات اللازمة لهما . . وكانت سويسرا أول دولة عرضت عليهما مركزا مرموقا فى جامعة جنيف ، وأرسلت انجلترا دعوة رسمية من المجمع الملكى لكى يحضر العالمان لالقاء محاضرات عن الراديوم .

وذهبا إلى لندن ، ومع مارى أنبوبة من زجاج فيها ذرات أغلى مادة فى الوجود ، زنتها جرام واحد .

وتوالت اللقاءات فى المجالات العلمية والحفلات العامة والخاصة لتكريم البروفيسور بيير والبروفيسور مارى عالمى الطبيعة .

وبعد عودتهما من إحدى الحفلات الباهرة قال بيير لزوجته ورفيقة نضاله : « تصورى أننى فى أثناء العشاء سرحت فى تعداد المعامل التى يمكن تشييدها بثمن الأحجار الكريمة التى تتحلى بها النساء التى حضرن الحفل . . ولما دعيت إلى الخطاب كنت قد وصلت إلى عدد من المعامل كعدد من نجوم السماء . . » !

لقد اتخذت الجمعية الملكية فى انجلترا قرارا بمنح جائزة ذات درجة عليا هى « نيشان دايفى » من الذهب ، وقد حفر عليها اسم : بيير ومارى كورى .

أما جائزة نوبل فقد جاءت إليهما بسبعين ألف فرنك ذهبا .

. . لكن المجد لايوزن بالذهب .

ان هذين العالمين الذين تحملا الفقر فى شبابهما بغير تذمر ولاشكوى ،

وصمدا للعمل المنهك المتواصل سنين عددا ، وثبتا أمام الغيرة والحسد والقهر . . قد أصبحا الآن تحت أضواء الشهرة بحيث يراهما سكان العالم أجمع . . والتفت حولهما كاميرات المصورين وأقلام الصحفيين واتوجرافات الهواة ودعوات أصحاب الجاه والنفوذ . . ولو أرادا المال لكانا من أصحاب الملايين .

لقد تألق اسماهما واشتهرا ، ولكنهما كانا أحوج إلى الهدوء والراحة . . وفى ذلك قالت مارى كورى فى مذكراتها :

« ان عيشتنا الهادئة الحافلة بالبحث والدراسة قد تزعزعت وتغيرت بحيث لم أعد أدرى هل يمكن أن نعود فنسترد قوانا على الاستمرار فى العمل » .

وجاء دور فرنسا فى تكريم العالمين بعد « نيشان دايفى » البريطانى وجائزة نوبل السويدية . . لقد أهدت جامعة باريس إلى بيير كورى كرسى الطبيعة فى السوربون ، كذلك أهدت مدام كورى – الدكتور فى العلوم – رياسة أشغال الطبيعة فى كلية العلوم بمرتب قدره ألفان وأربعمائة فرنك سنويا .

ثم اكفهرت السماء . .

لقد أضاءت الشهرة . . وانطفأت السعادة !

فى يوم أغبر – الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦ – كان البروفيسور بيير كورى خارجا من كلية العلوم ، وبينما هو يعبر الطريق ساهما ، من خلف إحدى العربات حتى صدمته عربة ضخمة تجرها خيول ثقيلة . . وقد أذهلته المفاجأة فلم يع شيئا . . ولكن الذين شهدوا الحادث الفظيع وجدوه قد سقط مضرجا بدمائه . . ومرت عليه العربة التى تزن ستة أطنان فأخمدت أنفاسه . . مات بيير كورى .

وتلقت مارى صدمة موته كالزلزال . . وراحت تصيح كمن أصابه مس من الجنون . . بيير مات . . مات كل الموت . . ! ؟

وتلقت من جميع بلاد العالم ومن كل مراكز العلوم برقيات ورسائل للتعزية فى هذا المصاب الفادح . . ولكنها لم تفقد عقلها رغم تحطم قلبها وانهزام جسدها وسقوط معنوياتها .

وقالت فى مذكراتها متوجهة بالخطاب إلى فقيدها :

« . . وفى الأحد التالى لموتك يابيير ذهبت إلى المعمل مع شقيقك جاك ، لأول مرة . . حاولت أن أقوم باتمام تجربة كنا قد بدأناها معا أنا وأنت . . فاستحال علىّ ذلك تماما .

« فى الشارع أمشى كأنى منومة تنويما مغناطيسيا لا أعى شيئا مماحولى . . اننى لن أقتل نفسى . . ولكن ألا توجد بين كل هذه العربات التى ترتفع على الطريق عربة تستطيع أن تحملنى إلى جوارك !

إنهم يعرضون علىّ أن أتولى مكانك يابييرى . . دروسك وإدارة معملك . . لقد وافقت ، ولست أدرى هل أحسنت أم اسأت ؟ ولكننى أريد — إذا كان ذلك فى استطاعتى — أن أتم بعض أعمالك . . »

الشهادات . . والمراكز . . والأمجاد

ولقد تلقت مارى كورى فى شهر مايو ١٩٠٦ قرار مجلس كلية العلوم — بالاجماع — تعيينها أستاذا فى كرسى زوجها بجامعة السربون ، بمرتب قدره عشرة آلاف فرنك سنويا . .

وكانت هذه أول مرة يعهد فيها إلى سيدة بمركز فى الجامعات الفرنسية .

وانهالت على الأرملة العظيمة شهادات الدكتوراه الشرفية وعضوية الأكاديميات الأجنبية ، ومنحتها فرنسا وسام « اللجيون دونور » .

وفى سنة ١٩١٠ نالت جائزة نوبل فى الكيمياء .

ولم يحدث قبل مارى أن تشرف قدر رجل أو امرأة بالحصول على جائزة نوبل مرتين . .

ذلك هو انتصار العبقرية .

وفى شهر مايو ١٩١٢ جاء وفد من أساتذة وعلماء وطنها بولندا يدعو العالمة الكبيرة للعودة إلى بلدها لتتولى دراسة مشروع معمل النشاط الاشعاعى . . فذهبت إلى وارسو ، ووضعت حجر الأساس لمعهد الراديوم .

واحتفلت بها بولندا كقديسة .

ودعتها جامعة برمنجهام وقدمت لها درجة الدكتوراة الفخرية .

وقدمت لها فرنسا ٤٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبا من جامعة السوربون ومعهد باستير لتأسيس معهد الراديوم ، الذى تقرر اقامته فى أحد شوارع الحى اللاتينى ، وأطلق عليه اسم شارع بيير كورى .

وفى شهر مايو ١٩٢٠ وجهت نساء الولايات المتحدة دعوة إلى الدكتورة مارى كورى لكى تزور أمريكا وأعدوا لها الهدية التى مافتئت تحلم بها : جرام من الراديوم . . وهو يساوى مائة ألف دولار . . تشجيعا لها على متابعة بحوثها .

ولقد عبرت مارى كورى المحيط الأطلسى على ظهر الباخرة اوليمبك حيث تلقاها على الشاطىء الآخر شعب مفتوح الذراعين يستقبلها استقبال الغزاة الفاتحين . . وفى نيويورك تلقت من الألقاب والجوائز والميداليات والكرم فى شتى صوره مافاق الخيال .

وأهداها عمدة نيويورك مفتاح المدينة .

وفى واشنطن أقيم احتفال عظيم لتحية العبقرية . . وقدم رئيس الولايات المتحدة « هاردنج » إلى الدكتورة مارى كورى : جرام راديوم ، بينما وقف اجلالا للمناسبة رجال الدبلوماسية والقضاء والجيش وأساتذة الجامعات .

وانفتح باب قاعة الاجتماعات ، وتقدمت الموكب مسز هاردنج زوجة الرئيس آخذة بذراع مسيو جوسران سفير فرنسا ، ثم مدام كورى آخذة بذراع الرئيس الأمريكى ، ثم مسز ميلونى نائبة عن نساء الولايات المتحدة وفى رفقتها ايرين وايف كورى ثم سيدات « لجنة مارى كورى » .

وخطب الرئيس الأمريكى ، ثم توجه فى مودة نحو المخلوقة النبيلة والزوجة الوفية والأم الحنون والعالمة العظيمة . . ووضع فى يدها لفافة من البرشمان مربوطة بشريط مثلث الألوان . . ثم وضع حول عنقها قلادة من حرير يتدلى منه مفتاح من الذهب الخالص . . هو :

مفتاح خزانة جرام من الراديوم .

هكذا . . تلقت مكتشفة الراديوم من أصدقائها الأمريكيين كنزا لايقدر بمال هدية للتقدير وتحية للنبوغ وتكريما للعبقرية .

وقال رئيس أقوى دولة فى العالم :

« لقد عهد إلىّ أن أقدم لك هذا القدر الضئيل من الراديوم . .

ونحن مدينون لك بمعرفتنا له وتملكنا اياه . .

لذلك نقدمه إليك ونحن واثقون أنه – وهو فى حيازتك – لابد أن يكون وسيلة لتوسيع نطاق العلم وتخفيف الام الناس » .

ولقيت مدام كورى التكريم فى جميع عواصم العالم ، وانهالت عليها

المناصب العلمية الشرفية ، وتأسست – بفضلها – معاهد الراديوم فى وارسو وباريس .

ثم دعتها الولايات المتحدة – للمرة الثانية – فى أكتوبر ١٩٢٩ وحلت ضيفة على الرئيس هربرت هوفر فى البيت الأبيض .

وفى فرنسا قدم خمسة وثلاثون عضوا فى أكاديمية الطب – فى باريس – إلى زملائهم طلبا أن تتشرف الأكاديمية بانتخاب مارى كورى عضوا حرا ، اعترافا بفضلها فى اكتشاف الراديوم ، وفى علاج « الكوريترای » .

وفى سنة ١٩٢٣ قررت مؤسسة كورى – التى انشأتها عطايا البارون دى روتشيلد الاحتفال بالعيد الفضى لاكتشاف الراديوم ، وأصدرت بالاجماع قانونا يقضى بمنح مارى كورى معاشا سنويا قدره أربعون ألفا فرنك ، مكافأة وطنية ، مع توريثه من بعدها لابنتيها ايرين ، وايف كورى .

وقدم مسيو الكسندر مليران رئيس جمهورية فرنسا إلى مارى كورى : المعاش الوطنى : فى احتفال مهيب حضره الوزراء والعلماء وعمداء وأساتذة الجامعات .

وقال مسيو ليون ميرار ، وزير المعارف الفرنسية ، فى تلك المناسبة : « ان اقتراح هذا القانون واقراره – وهو يحمل امضاءات ممثلى فرنسا جميعا من حكومة وبرلمان – يعدّ بمثابة تصميم أكيد على نسيان تواضع مدام كورى ، وعدم الاعتراف بما تريده من زهد مادى » !

انتصار العبقرية

ومال ميزان الأرض .

ونزل المرض على جسد الدكتورة مارى كورى

واجتاحتها الحمى . . وأودعتها المصحة . . والتف حولها كبار الأطباء . .
لايستطيعون شيئا .

وكما هى آخرة كل حى ، فارقت مارى كورى الحياة

ماتت يوم ٤ يوليو ١٩٣٤ بداء الأنيميا الخبيثة

وعلى قبرها كلمات قليلة .

مارى سكلود وفسكى كورى

١٨٦٧ - ١٩٣٤

. . ولكن فى واجهات المكتبات فى جميع عواصم العالم ، يشاهد المارة مؤلفا ضخما ، ويقرأون على واجهة اسم المؤلف :

« مدام بيير كورى

أستاذ فى السوربون

جائزة نوبل فى الطبيعة

جائزة نوبل فى الكيمياء »

أليس هذا بحق، هو أزهى انتصار للعبقرية ! ؟

ألم يقل العالم الخالد آينشتينى :

« ان مدام كورى ، من بين جميع المشاهير، هى وحدها التى لم يفسدها المجد » .

المحتويات

الكتاب . . والمؤلف



* هذا الكتاب هو رقم ٥٣ من مؤلفات السيد فرج . وكان أولها كتاب « الرياضة فى بلادنا » الذى أصدرته « دار المعارف » يوم أول يناير سنة ١٩٤٠ .

* وقد شغل السيد فرج عدة مناصب ثقافية وإعلامية بارزة خلال العشرين سنة الماضية .

* فى سنة ١٩٥٦ عين وكيلا ومديراً بالنيابة لدار الكتب .

* فى سنة ١٩٦٠ عين مديراً عاماً لجامعة الثقافة .

* فى سنة ١٩٦٥ عين وكيلا لوزارة الإعلام .

* فى سنة ١٩٧٦ انتخب سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى للثقافة والإعلام .

* فى سنة ١٩٧٧ عين مستشاراً لوزير الثقافة وأميناً عاماً للمؤتمر العام للثقافة والإعلام .

* وقد عين إلى جانب وظائفه الرسمية عضواً فى المجلس الأعلى لدار الكتب والوثائق القومية ، والمجلس الأعلى لرعاية الشباب ، وعضواً فى مجلس إدارة المؤسسة الثقافية العمالية ومجلس إدارة المؤسسة الاجتماعية العمالية ، ورئيساً لمجلس إدارة مسرح العمال ، ومديراً لتحرير مجلة الثقافة العمالية ، وعضواً فى اتحاد الكتاب ، كما انتخب سكرتيراً عاماً لجمعية الصداقة المصرية الأمريكية .

* وقد زار السيد فرج منشآت ومراكز الثقافة والإعلام فى عدة دول أوربية وأفريقية وآسيوية ، كما أسهم فى تنمية ودعم العلاقات الثقافية والإعلامية العربية .

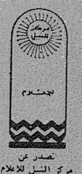
* وللمؤلف صلة قديمة ومستمرة بدوائر الرياضة البدنية والصحافة ، وكان لقلمه مكان مرموق على صفحات الأهرام والمصرى ومجلة الهلال ومجلة المشاة ومجلة رابطة العالم الإسلامى ، وكان يوقع كثيراً من مقالاته بإمضاء « سيف » .

* وللسيد فرج ٥٣ كتاباً فى موضوعات حربية وثقافية وإعلامية ، من أشهرها : « جيشنا فى فلسطين » و « القيادة والقادة العظام » و « عبور القناة » و « تيتو فى الميدان » و « صور من البطولة العربية » و « شاوشيسكو رجل رومانيا » و « شخصيات فوق العادة » و « شوقى والمتنبى » و « مسرحية ساعة إخلاص » .

رقم الإيداع		١٩٨٠ / ٥٣٥٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤١-٨-٣	ISBN

٢/٨٠/٥٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



تصدر عن
مركز النيل للاعلام
١ شارع دمياط
العجوزة ـ القاهرة
ت ٨١٣٢٠٨ ـ ٨١٢٨٦٢

الثمن ٢٥٠ مليما

طبع بمطابع دار المعارف